الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري

كلية الآداب واللغات | قسم اللغة العربية وآدابها

تمظهر أدب الآخر في مؤلفات المستشرقين

ريجيس بلاشير نموذجا

مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

إعداد الطالبة :

- حورية زعبال

إشراف الأستاذة:

د/ ليلى جباري

شعبة الأدب العربي | تخصص الآداب الأجنبية والأدب المقارن

ماي 2011

شكر و تقدير

من لايشكر الناس لايشكر الله
اتقدم بشكري الجزيل و تقديري وامتناني لكل من ساعدني في انجاز هذا العمل
وشكر خاص لأستاذتي الكريمة الدكتورة ليلى جباري.

مقدمة: تعود العلاقة بين الشرق و الغرب لعصورخلت واختلفت هذه العلاقة باختلاف العصور،حسب الدوافع سواء كانت دوافع سياسية أواقتصادية أوإستعمارية أو ثقافية،فكان للاحتكاك الشرق والغرب نتائج ظهرت خاصة في الكتب الدارسين المؤرخين والرحالة و الجغرافيين و المستشرقين،فقد ظل اهتمام الغربيين بالشرق متواصلا.

هذا الاهتمام قد ولد صورة لدى الغرب عن الشرق ، أي صورة لدى الأنا الغربي عن الآخر الشرقي، فمعروف أن كل الثقافات والحضارات الإنسانية المختلفة تحمل صورة ما للآخر وهو ذلك الذي لا يشكل جزءا من المجموعة الثقافية و الاجتماعية،التي تنتمي إليها الذات بيد أن هذه الصورة التي ترسمها الذات للآخر لا تقوم عفوا و لا ترسم بعيدا عن كل تصميم و سبق تقدير بل هي ثمرة وعي و معرفة سابقتين.

وأهم من ساهم في تصوير هذه الصورة هم المستشرقون أي الباحثون أو الدارسون في الموضوعات الشرقية فقد ألفوا وأصدروا مؤلفات كثيرة تتحدث عن المجتمع الشرقي وكل ما يميزه دينيا و ثقافيا و أخلاقيا وتاريخيا و لم يتركوا جانبا إلا و خاضوا فيه و عبروا عن آرائهم فيه ،فكونت هذه المؤلفات صورة لا يمكن أن تكون صحيحة في كل الأحيان فتناولوا الدين الإسلامي و سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم بالدراسة و النقد و التحليل و كذلك الفقه و التفسير كما تناولوا تاريخ الأمة الإسلامية و علومها و فلسفتها وكل ما يتعلق بهذه الأمة من عادات و تقاليد و أعراف و أفكار.

و كان للأدب العربي نصيب كبير من هذه الدراسات فقد خصوه بعناية كبرى و اهتموا بقديمه و حديثه و تطوره و أصالته و عصوره و نهضته و تأخره و ازدهاره و انحطاطه و انتحاله و سرقاته و تأثره و تأثيره و أعلامه و شعرائه و كتابه و منه كان النموذج الذي اخترته لمذكرتي وهو "تاريخ الأدب العربي" لريجيس بلاشير،الذي رسم فيه معالم الأدب العربي.

وقد ظهرت دراسات ومناقشات لهذه الآراء و الصور تجلت في العديد من المؤلفات العربية مثل فلسفة الاستشراق لأحمد سمايلوفتش ،المتخيل و التواصل لنورالدين أثاية والاستشراق لفتيحة النبراوي و من الدوريات صورة المجتمع الصحراوي الجزائري لأحسن داوس و مدينة قسنطينة في أدب الرحلات لعبد الحفيظ بورايو.

فقد جاء اهتمامي بهذا الموضوع لمحاولة معرفة الصورة التي كونت عن المجتمع و الحضارة العربية و الشرقية في أدب المستشرقين،هل هي صورة حقيقية تمتاز بالإنصاف و الموضوعية؟أم هي صورة عنصرية متشددة بنيت على ترسبات و أحكام سابقة؟فجاءت مشوهة لا تمت للواقع بصلة.
فكان عنوان مذكرتي" تمظهر أدب الآخر في مؤلفات المستشرقين ريجيس بلاشير نموذجا "أي الصورة أو الشكل الذي رسم به الآخر و اظهر به و اقصد بالآخر هنا المجتمع العربي الذي يعتبر جزء

هاما قامت عليه الدراسات الاستشراقية باعتباره جزء من الشرق و سيكون الأدب العربي نموذجا لتبيين هذه الصورة فكيف رأى بلاشير أدبنا العربي و كان لابد في البداية من معرفة تاريخ العلاقة بين الشرق و الغرب،خاصة و قد جسد كثيرا منها،فبرزت في مؤلفات المستشرقين،كما كان لابد من تبيين الصورة الايجابية التي رسمت لنا فالدراسات الاستشراقية وان تعددت أغراضه ا وتباينت مراميها وأهدافها إلا أنها لم تكن خالية من الفائدة العلمية،كذلك تبيين الصورة السلبية التي رسمها أناس يميلون إلى إبراز المساوئ و تشويه الحقائق و الكشف عن حقيقة ما يخفون من وراء دراساتهم من أغراض دينية و استعمارية و اقتصادية،تغذي هذه الرؤية العدائية لكل ما يمثل الشرق و العالم الإسلامي و العربي خاصة منذ العصور الوسطى.

وسيختلف المنهج الذي سأتبعه في بحثي هذا من فصل لآخر ففي الفصل الأول سيكون المنهج وصفيا تاريخيا،لتبيين العلاقة التاريخية بين الشرق و الغر ب و معرفة تاريخ الاستشراق و تطوره عبر العصور،كما سأعتمد المنهج الوصفي التحليلي في الفصل الثاني ،أعرض فيه آراء المستشرقين الإيجابية و السلبية و تعريف الآخر و نفس المنهج سأتبعه في الفصل الثالث حيث سأعرض آراء ريجيس بلاشير في الأدب العربي القديم ثم سأحاول مناقشتها و الرد عليها و تحليلها بعيدا عن التهجم و السخرية و التنديد و بعيدا عن التحامل و الثناء بأسلوب علمي بعيدا عن التعصب.

و بعد جمع المادة انتظم البحث في مدخل عام و ثلاث فصول،تناولت في المدخل الصلات التاريخية بين الشرق و الغرب و في الفصل الأول مفهوم الاستشراق ونشأته وتطوره وأهدافه وأهم مدارسه وجاء الفصل الثاني عن علاقة الاستشراق بالآخر وعن التمظهر الايجابي و السلبي للآخر أما في الفصل الثالث و الأخير وهو فصل تطبيقي تناولت فيه التعريف بالمستشرق ريجيس بلاشير صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي و بينت رأيه في اللغة العربية ورأيه في الأدب العربي القديم شعره و نثره

وفي الأخير أتقدم بشكري الجزيل لكل من ساعدني و ساهم في تقديم هذا العمل و على رأسهم الأساتذة المشرفة الدكتورة ليلى جباري على توجيهاتها و نصائحها التي أمدتنا بها و التي ساهمت في انجاز هذا العمل.

مدخل

مدخل: الصلات التاريخية بين الشرق والغرب

إن العلاقات بين الشرق والغرب قديمة قدم استقرار الإنسان في الشرق أو الغرب وقد تطلع الغرب دائما منذ أقدم العصور إلى الشرق باعتباره السباق دائما في إرساء دعائم الحضارة البشرية، فقد استقر الإنسان في مصر منذ آلاف السنين قبل الميلاد ومعه إنسان العراق، فالحضارة الشرقية أو حضارة الشرق قد سبقت الحضارات الغربية بأشواط عديدة .

وتعد العلاقة بين الشرق والغرب من أهم المحاور التي دار حولها التاريخ الإنساني سواء على المستوى السياسي أو العسكري أو الإقتصادي أو الثقافي أو الحضاري وهذه العلاقة لم تكن كلها عدائية أو كلها سليمة، فقد تراوحت تلك العلاقات بين هذا وذاك وكانت العلاقات الأولى بينهما التي اتخذت طابعا تجاريا ترجع إلى أيام الكنعانيين ثم تلا ذلك علاقات الحرب والاحتلال بين هذين العالمين المميزين جغرافيا بالشرق والغرب.

فإذا رجعنا إلى القرن السادس قبل الميلاد وجدنا أن اليونانيين قد تعرفوا إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية وهذه المعرفة تعود إلى أيام الكنعانيين والعلاقات التجارية معهم، كما قامت في هذه الفترة الدولة الفارسية واتسعت رقعتها شرقا حيث امتدت إلى نهر السند بالهند وشملت آسيا الوسطى وحين أرادت التوسع غربا نشبت الحروب الطاحنة بينهم وبين اليونان وكانت الغلبة في البداية لفارس على المدن اليونانية أثينا وإسبرطة ثم رجحت كفة اليونان ،الذين استطاعوا في النهاية طرد هؤلاء الغزاة القادمين من الشرق بعد حروب طاحنة انتصر فيها الفرس أولا ثم اليونان ثانيا .

ويبدو أن هذا النزاع العنيف الطويل الأمد أثار رغبة البعض في التعرف على هذا العالم الذي أتى منه الغزاة أملا في توضيح أسباب النزاع وفي سبيل فهم العدو فكان الرجل الذي قام بالبحث العلمي و استقراء الظروف والأحوال وتسجيلها وهو المؤرخ اليوناني الشهير هيرود وتس (485-425 ق م)الذي أصبح يعرف فيما بعد أبا التاريخ فقد جمع في كتابه معلومات كثيرة وقيمة عن الأصقاع التي زارها وثمة أمور ذكرها ذكرا مفصلا كانت على مايبدو صحيحة، فتحدث عن أرض الرافدين ومصر وبلاد الشام وعن جزيرة العرب وسكانها،لكن وصفه لم يخلو من الأساطير والخرافات والخوارق البعيدة كليا عن الحقائق العلمية وهي ميزة كل من كان على شاكلته من المؤرخين والكتاب[1] ولا ننسى الإشارة إلى المحاولة التي قام سكيلاكس اليوناني قبل هيرودوتس هذا الضابط والبحار الذي عبر نهر السند وسواحل إيران الجنوبية وعبر خليج عمان والخليج العربي ويعتبر تقريره أول وثيقة غربية عن رقعة شرقية نائية وقد انصب اهتمامه على الأمور التجارية والاقتصادية، أكثر منها جغرافية فكان تقريره حقائق علمية ولكنه كان محشوا بقصص سمعها في رحلته ودونها على أنها حقيقة[2] "وفي أواخر القرن

---

(1)سامي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، دار المدار الإسلامي،ط1 بيروت 2002 ،ص28.

(2)نقولا زيادة : الغرب يشرق ،مجلة الفكر العربي ،ع31، 1983، ص33.

الرابع قبل الميلاد قام اليونان بزعامة الشاب الغريب الأطوار وهو الإسكندر الأكبر برد الزيارة التي قام بها الفرس لبلاده فاحتل آسيا الصغرى ومعظم مناطق الشرق المعروفة مكتسحا الفرس أعداء بلاده القدماء وتوغل في أراضيهم وبعد أن باتت له تلك الأصقاع استمر في حربه المظفرة حتى وقف على أبواب الصين، عندما عاجلته المنية ولم يتعدى عمره ثلاثة وثلاثين سنة "[1]وقد فكر الإسكندر أثناء اجتياحه للشرق في احتلال الجزيرة العربية فأرسل بعثة استطلاعية تمهيدا للإستلاء على هذه الأصقاع الملينة بالغموض والأسرار واتخذ من بابل قاعدة للانطلاق، فوصل أسطوله بقيادة أرخياس إلى جزيرة البحرين الحالية تيلوس في ذلك الزمان، وقد قدمت هذه البعثة البحرية تقارير وافية عن المناطق التي وصلت إليها وتناولت سكانها وإنتاجها والمبادلات التجارية بالدراسة.[2]

ولايهم مدى نجاح هذه الحملات لكن المهم أن فتوحات الإسكندر أوجدت اتصالات جديدة بين هذه الأجزاء المتباعدة من الشرق وقوت الروابط التي كانت قبلا وفتحت المجال أمام الخيال الخصيب ليضيف دوما الكثير من التصورات والرؤى إلى الحقائق المتعارف عليها.

وتكررت المحاولات مع الرومان وحلت الإمبراطورية الرومانية "محل الإمبراطورية الإغريقية في هذه الأصقاع وبعد أن تغلبت روما على إسبرطة وأثينا زحفت بجيوشها المدربة تدريبا عسكريا لامثيل له في التاريخ فاحتلت سوريا سنة 64 ق.م وانتهت بضم مصر إليها ثم غزت شمال أفريقيا بكامله وقضائها على مدينة قرطا جنة التي صيرتها خرابا يبابا إلى يومنا هذا وذلك بعد حرقها وتدميرها وزرع أرضها بالملح حتى لاتنبت مرة أخرى"[3]

فكان لقيام الإمبراطورية الرومانية وتوسعها شرقا وازدياد العلاقة التجارية بين أجزائها وبين الشرق مجالا لازدياد التنقل وانتشار الأخبار عن المتاجر والسلع والأشياء والعادات الغريبة في الشرق بهرت الفرد الغربي وألقت حولها القصص والحكايات وزادت رغبته في التعرف على هذه المناطق وقد" ظهرت في العصور الأولى للإمبراطورية كتب هي أقرب إلى الدليل الجغرافي التجاري منها كتاب دليل البحر الأرتيري* الذي وضعه مؤلف مجهول وقبله نقل سترابون (36ق م- 21م) المؤرخ الجغرافي أخبار التجار الذين كانوا يترددون على الأماكن القاسية فقد تعددت أنواع السلع التي تنقل من الشرق إلى أوروبا وزادت كميتها وأكثر هذه البضائع رواجا الحرير الصيني فكان لطريق الحرير أهمية عند المؤرخين والجغرافيين"[4]فكان الفرد الأوروبي يسعى دائما للتعرف على الشرق خاصة مع انتشار هذه الصور الغريبة ورغبة منه في خوض هذه المغامرات والحصول على هذه السلع.

كما اهتم المؤرخون الرومانيون على الأخص بالوقائع والأحداث السياسية أما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية فقد وردت عنها لمحات وأفكار في رسائل سيشرون وخطبه ودراسات هوراس في الشعر والدراما وخطابات بليني الأصغر وغيرها من الكتابات التي أوضحت تأثير الشرق على الإمبراطورية الرومانية خاصة

(1)ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي، ص29.

(2)المرجع نفسه، ص29.

(3)المرجع نفسه ،ص33.

(4)نقولا زيادة : الغرب يشرق، مجلة الفكر العربي، ص34.

*الأرثيري: يقصد به المحيط الهندي، موانئ مصر والجزيرة العربية والقرن الإفريقي وغرب الهند.

التـأثير الذي مارسته مدرسة الإسكندرية [1]"فقد كانت الإسكندرية هي المصدر الذي لاينضب ،تمد الإمبراطورية الرومانية برجال العلم والفكرو السياسة وكانت مركزا تجاريا تلتقي فيه السلع الشرقية والغربية، كما كانت مركزا ثقافيا زاخر بالفلاسفة والمفكرين وكانت مكتبته الشهيرة مضرب الأمثال بما تحتويه من نفائس الكتب وقيم المؤلفات"[2] والمهم أن الأفق الغربي الأوروبي الذي بدأ يدور حول شواطئ المتوسط في العصور القديمة أخد يتوسع مع الزمن بسبب فتوح الإسكندر وتجارة الإمبراطورية الرومانية إلى إيران وحوض السند وسواحل الجزيرة العربية وشرق قارة إفريقيا والهند، وبلغ اتساعها جنوب شرق آسيا والصين وكانت كل خطوة تحمل معها معلومات ومعارف جديدة وقصص وأساطير وأخبار ومغامرات وقد ظلت المعرفة العلمية وقفا على فئات صغيرة، فيما كانت القصص وأخبار الناس العجيبة والحيوانات الغريبة تنتشر بين الناس فكانت الهند بلاد الطيوب والتوابل والصين بلاد الحرير رغم أن الصورة المتعلقة ببلاد العرب كانت أقرب إلى الحقيقة فمع ما كتب ونشر ظل الشرق بأجزائه القصوى مكانا بعيدا جدا بالنسبة للعالم الغربي .

واستمرت هذه العلاقة فكانت" المواجهة العنيفة إبان القرون الوسطى بكاملها وكانت الحروب الفكرية والعسكرية سجالا بين الطرفين بداية من الفتح الإسلامي لسوريا والشام والأناضول حتى مشارف القسطنطينية ونهاية بطرد الرومان من مصر وشمال إفريقيا ثم تجددت الحروب العسكرية بين المسيحية والإسلام وهو ماأطلق عليه إسم الحروب الصليبية وهي تلك الحملات العسكرية التي قام بها الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي ثم امتدت هذه الحملات العشر حتى شملت شمال إفريقيا أيضا ومما يميز هذا الصراع اتسامه بالطابع الديني وانتهى الصراع الأول بطرد الصليبيين من الشرق الإسلامي سقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام 1453م"[3] .

ثم تطور هذا الصراع الغربي في العصر الحديث الذي تمثل في استعمار أوروبا للعالم الإسلامي ومقاومة الأخير لهذا الاستعمار الذي نتج عنه طرد الغزاة من جديد فتبدل الصراع من استعمار استيطاني عسكري مباشر إلى استعمار فكري وثقافي مازال نشهده ونراقب أحداثه وننتظر نتائجه،فتأثيره كما نرىأكثر بكثيرمن الاستعمار العسكري.

---

(1)نبيل راغب : موسوعة النظريات الأدبية ،الشركة المصرية العالمية ،ط1 ،مصر 2003، ص19.

(2) ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الإستشراقي، ص35.

(3) المرجع نفسه، ص210.

الفصل الأول: مفاهيم نظرية

مفهوم الاستشراق:

يعتبر الاستشراق أحد المعارف التي يصعب إيجاد مفهوم ثابت لها يحيط بكل جوانبها فقد عرف الاستشراق منذ ظهوره تطورا كبيرا وتغيرا في مضامينه لذلك سأحاول دراسة مفهومه كما ورد في الكتب و القواميس الأكاديمية وكما ورد عند الباحثين و الدارسين و الكتاب مع العلم أن مفهوم الاستشراق قد تغير باستمرار أثناء مراحل تطوره.

المفهوم اللغوي : الواضح أن كلمة الاستشراق مشتقة من مادة شرق يقال شرقت الشمس شرقا و شروقا إذا طلعت[1] ويقال الشرق: الشمس،حيث تشرق الشمس،شرقت الشمس شرقا وشروقا[2] والجدير بالذكر أن الكلمة التي نبحث عن مفهومها اللغوي لم ترد في المعاجم العربية المختلفة لكن يمكن الوصول إلى معناه استناد إلى قواعد الصرف و علم الاشتقاق حيث يبدو أن معنى استشرق أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم[3].

المفهوم الاصطلاحي(العلمي):تصب معظم التعاريف العلمية في أن الاستشراق هو دراسة الحضارات الشرقية و لغاتها وعاداتها و هو كل ما له علاقة بهذه الشعوب و هي كل الشعوب الأسيوية وكل شعوب شمال إفريقيا و ما لكل شعب من خصوصيات حضارية و ثقافية واجتماعية و تاريخية .

وقد ورد في بعض المعاجم أن الاستشراقOrientalisme يعني كل ما يتعلق بعادات وتقاليد شعوب الشرق ومن ثم فإن تعريف المستشرق Orientalisteفهو الدارس أو الباحث في الموضوعات الشرقية[4] أي كل ما له علاقة بالشرق .وأول استعمال" لكلمة مستشرق كان سنة 1630م حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية وفي سنة 1691عندماوصف أنتوني وود صموئيل كلارك بأنه استشرقي نابه وعنى بذلك انه عرف بعض اللغات الشرقية كما أنه وخلال المجادلة التعليمية بالهند التي جسدها تقرير ماكولي الشهير سنة 1834م كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين بينما سعى معارضوهم الذين رغبوا في أن تكون الإنجليزية أساس التعليم بالهند "المتنجلزين Anglicistes،أما قاموس أكسفورد الجديد قد حدد المستشرقOrientaliste بأنه من تبحر في لغات الشرق وآدابه"[5] أما نزيه الكبسي فيرى أن أول استعمال لمصطلح مستشرق orientaliste بدأ منذ عام 1777في إنجلترا وعام 1799 في فرنسا،أما مصطلح الاستشراق orientalisme فقد بدأ استعماله في معجم الأكاديمية الفرنسية عام 1838.[6]

وإذا ذهبنا إلى أبعد من هذا لرأينا أن كتابا معارضون مثل إدوارد سعيد يتبعون الاستشراق بوصفه نمطا من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه يقول" يمكن اعتبار الاستشراق نهجا من الرؤيا والدراسة والكتابة المنطقية المقننة (أو المشرقنة) تسيطر عليه الضرورات الحتمية والمنظورات والأهواء العقائدية الملائمة ظاهريا

---

(1) المعجم الوسيط،ج1، مجمع اللغة العربية ،القاهرة 1960ص412.نقلا عن أحمد سمايلوفتش.

(2)مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي:القاموس المحيط،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،2004ص911.

(3)أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق،دار الفكر العربي،القاهرة1998،ص22.

(4) فتيحة النبراوي: الاستشراق ط1 الدار السعودية للنشر والتوزيع السعودية، 2006ص130.

(5) أحمد سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق ص23

(6) نزيه الكبسي, ما الاستشراق ؟وما سمته؟ وما مساراته؟ ، مجلة المعرفة، العدد 277، 1981 ص 142

للشرق فالشرق يدرس ويبحث ويدار وتصدر عليه الأحكام بطرق معينة خفية محترسة... إنني أؤمن بأن الاستشراق كان هو نفسه نتاجا لقوى ونشاطات سياسية معينة فالإستشراق مدرسة للتفسير حدث أن كانت مادتها الشرق بحضارته وشعوبه وأقاليمه المحلية واكتشاف الاستشراق الموضوعية وهي "حصيلة" عمل باحثين لايحصون نذروا أنفسهم له فحققوا النصوص وترجموها ودونوا النحو في المجتمعات ووصفوا المعاجم وأعادوا تركيب حقب منسية وأنتجوا معرفة يمكن تحريرها وامتحانها وضعيا"[1] .

ومعنى الاستشراق واسع جدا وقد حدد له إدوارد سعيد عدة مفاهيم فكل من يقوم بتدريس الشرق أوالكتابة عنه أو بحثه ،سواء كان المرء مختصا بعلم الإنسان "أنتريولوجي" أو بعلم الاجتماع أو مؤرخا أو فقيه لغة "فيلولوجيا" في جوانبه المحددة والعامة على حد السواء هو مستشرق وما يقوم به هو أو هي بفعله هو استشراق فالكتب ما تزال تكتب والمؤتمرات تعقد ومحركها الرئيسي الشرق والسلطة المرجعية فيها المستشرق في قناعه الجديد أوالقديم وفي أطروحاته عن الشرق والشرقي .

فالاستشراق أسلوب من الفكر القائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب وهكذا فقد تقبل جمهوركبير جدا من الكتاب وبينهم شعراء وروائيون وفلاسفة منظرون سياسيون و اقتصاديون وإداريون واستعماريون التمييز الأساسي بين الشرق والغرب بوصفه نقطة إنطلاق محكمة الصياغة من النظريات والملاحم والروايات والأوصاف الاجتماعية والسياسة التي تتعلق بالشرق وسكانه وعاداته وعقله وقدره وما إلى ذلك وبوسع هذا الاستشراق أن يفسح مكانه ليستوعب إسخليس وفكتور هيجو ودانتي وكارل ماركس[2] وهناك معنا ثالث يصفه سعيد للاستشراق وهو معنى محدد تاريخيا وماديا إلى درجة تفوق تحديد أي من المعنيين الآخرين، إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشرنقطة للإنطلاق محددة تحديدا تقريبيا فإن الاستشراق يمكن أن يناقش و يحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله وإجازة الآراء فيه وإقرارها وبوصفه وتدريسه والاستقرارفيه وحكمه وبايجاز الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيطرةعليه[3]فمعنى الاستشراق عنده يرتبط بسيطرة الغرب على الشرق فكل محاولة لمعرفة الشرق لابد أن تكون لها أهداف خفية إستعمارية سواءكانت بطرق مباشرة أوغير مباشرة

ولكلمة مستشرق معاني مختلفة متداخلة ومتكاملة وتطلق بشئ من التجاوز على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أومن بعيد ولو أخذنا بعين الاعتبار كل هؤلاء الناس الذين قاموا بهذه الدراسات والبحوث لوجدناهم تختلف صفاتهم وتخصصاتهم طبقا للمراحل المختلفة التي مر بها الاستشراق فقد اهتم بالشرق قديما وحديثا الرحالة والمسيرون والضباط ورجال الإدارة الاستعمارية واللغويون والاهوتيون الأنثربولوجيون ومؤرخوا الحضارات والتربويون والرومانسيون ورجال المخابرات والمؤرخون الاقتصاديون ومندوبوا الشركات وخبراء الأسواق التجارية والسياسيون، إلا أنه من الصعب علينا اعتبارهم جميعا من المستشرقين بالمعنى الأكاديمي ومن هنا صعوبة تحديد مفهوم الاستشراق والمستشرقين أليس كل من تناول الشرق في إحدى جزئياته يطلق عليه اسم مستشرق فكثير من الجواسيس والخبراء المتخصصين في الشرق حاليا ليسوا متمكنين من دراستهم بالقدر الذي كان عليه أسلافهم ولا تتعدى دراساتهم تلك التقارير البسيطة والمقدمة للجهات التي يتبعونها[4]

---

(1)إدوارد سعيد:الاستشراق،المعرفة،السلطة،الانشاء،ترجمة:كمال أبو ذيب،ط2،مؤسسة الأبحاث العربية،1984،ص214.

(2)المرجع نفسه، ص38.

(3) المرجع نفسه، ص39.

(4) الساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي ،ص23.

فالاستشراق لايخرج عن كونه تلك الدراسات والمباحث التي قام بها الغربيون لمعرفة الشرق من جميع جوانبه أي هو التخصص في فروع المعرفة المتصلة بالشرق، مصطلح الاستشراق يمكن أن يحتمل أو يتسع ليشمل مجالين :"الأول أنه يختص بعلم اللغة أو فقه اللغة والثاني أنه يتعلق بعلم الشرق أو معارف الشرق التي تتضمن اللغات والآداب والفنون والتاريخ والآثار والفلسفة وغيرها"[1] وهنا لابد أن نوضح أيضا أن هذا المصطلح ينسب فعليا إلى العصر الحديث وأن اللغات الأوروبية الفرنسية والإنجليزية عرفت هذا الإصطلاح منذ نهاية القرن الثامن عشر ومع التغيرات السياسية إقليميا ودوليا ومع زيادة المصالح الإستعمارية واتضاح معالمه أخذ المصطلح معاني أكثر اتساعا وأكثر أهمية بالنسبة للدول الإستعمارية الكبرى .

وقد لخص أحمد سمايلوفتش في دراسته" فلسفة الاستشراق" آراء المستشرقين الغربيين عن الاستشراق أمثال أوبري وروندسون وجويدي وآراء الباحثين المسلمين المحدثين مثل أحمد حسن الزيات وأحمد أمين وعلي العناني وأحمدالشرباصي ومحمد عبد الغني إبراهيم اللبان ومحمد الحوماني وحسن الهرافي ومالك بن نبي وعلي حسن الخربطولي ثم لخص تلك الآراء وعقد موازنة بينها خلص منها إلى:

- ان الاستشراق قد أصبح علما مستقلا له ذاتيته وكيانه ويقوم بدراسته كل ما يتعلق بالشرق وحضارته.
- قرر العلماء أن المستشرق لابد له من معرفة كاملة بإحدى اللغات الشرقية وآدابها ولم يخالف هذا الرأي سوى على حسن الخربطولي وشدد جويدي مقابل ذلك فلم يكتف بمعرفة المستشرق إحدى اللغات المجهولة بل ذهب إلى أنه لابد له من التخصص العميق وبعد النظر وثبات الوقوف على القوى الروحية والآثار الأدبية العظيمة وأثارها في الحضارة الإنسانية قديما وحديثا.

- اهتم علماء الغرب اهتماما كبيرا بتاريخ الاصطلاح نفسه منذ ظهوره حتى الاعتراف به وإدخاله إلى لغاتهم ومعاجمهم،وعلى عكس ذلك لم يشر علماء العرب إلى هذه الناحية إلا من بعيد جدا .
- اتهم بعض علماء العرب علم الاستشراق أصحابه صراحة بالتطرف والتعصب وذلك لصلته الوثيقة بالتبشير ومهمته.
- أشار الجميع إلى الدور الكبير الذي لعبه الاستشراق في تعريف الغرب بحضارات الشرق عامة وحضارة الإسلام خاصة وأثرهما العظيم في الغرب نفسه ونهضته العلمية والفكرية على حدا سواء.[2]

---

(1) فتيحة النبراوي: الاستشراق، ص15.
(2) أحمد سمالوفش : فلسفة الاستشراق،ص32.

2-نشأته وتطوره :

يشير مصطلح الاستشراق في مدلوله الأساسي والمتداول إلى الاهتمام العلمي والأكاديمي الغربي بالثقافات الشرقية بما يتضمنه ذلك الاهتمام من دراسة وتحقيق وترجمة وقد اتسم الاستشراق بالطابع الديني في مرحلته المبكرة حيث أثبتت الدراسات أن الباعث الديني كان من أهم البواعث التي دفعت الغرب إلى الخوض في هذا المجال من الدراسات الشرقية، محاولين بذلك التنقيب عن عدائهم للإسلام هذا العداء الذي يرجع إلى قرون مضت منذ أن بزغ نور الإسلام على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه و سلم.

فبعد أن خرج العرب من جزيرتهم و أسسوا إمبراطوريتهم الواسعة وكونوا تلك الدولة الموحدة المترامية الأطراف الممتدة من إسبانيا والمحيط الأطلسي غربا إلى حدود الصين شرقا وبعد أن تكونت الثقافة العربية الإسلامية من مصادر أصلية كالقرآن والشعر والنثر وتطورت لتشمل ثقافة إنسانية أعم وهي الحكمة الفارسية والهندية والإفريقية التي وصلت المسلمين عن طريق الترجمة في العصر العباسي فكان لهذه الحضارة مكانة وقيمة كبيرة فكان إعجاب الغربيين بالحضارة الإسلامية عظيما خاصة الإسبان حيث أرسلت الدولة الأوروبية الرهبان والقساوسة لطلب العلم والمعرفة في الجامعات العربية المنتشرة في ربوع إسبانيا وخاصة جامعة قرطبة [1].

وقد عرف الأوروبيون مدى قوة تأثير هذه الحضارة ومدى خطورتها على حضارتهم فحاولوا التصدي لها فكانت الحروب الصليبية في محاولة منهم للقضاء على الإسلام " والحروب الصليبية هي تلك الحملات التي قام بها الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي مستترا بقناع الدين لاسترجاع الأراضي المقدسة وكنيسة القيامة راغبا في الحصول على خيرات الشرق والتحكم فيه بل هو محاولة مبكرة للنزعة الاستعمارية ويحدد المؤرخون الفترة من 1095م إلى 1291م تاريخا للحملات الصليبية " [2] رغم أن الواقع يؤكد أن الصراع كان أقدم من ذلك بكثيرقبل العصر الأموي والعباسي في بلاد الشام وفي المغرب العربي مع الروم وفي بلاد الأندلس و"يظهر هذا الصراع خاصة مع شارل مارتل وشارل لمان في أنشودة رولان من صراع مسيحي إسلامي ووصف المسلمون بأنهم كفرة وسوء تصوير الرسول صلى الله عليه وسلم". [3]

فإذا كانت الحرب والسلاح هما الوسيلة التي اتخذها الغرب للتعبير عن حقدهم على الإسلام فإنهم استخدموا سلاحا آخر لايقل أهمية وخطورة وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة فكتب المستشرقون عن الدين الإسلامي وعن نبيه وعن علوم الإسلام، محاولين تشويه صورته رغم اختلاف المستشرقين ووجود المحايدين منهم من كتب بصدق وأمانة وقدتميزت كل الجهود التي بذلها المسيحيون في فترة الحروب الصليبية بأنها اتسمت بالطابع الديني حيث دعا إليها رجال الدين وتعهدها الباباوات فكانت العلاقة بين الطرفين في هذه الفترة تتسم بالعداء وكانت المؤلفات تصف المسلمين بالكفرة وتلصق بهم أبشع الصور والأفعال .

---

(1)ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي، ص40.

(2)عفاف سيد صبرة : الاستشراق ومشكلات الحضارة، دار الفكر العربي،ط2، القاهرة 1997 ،ص15.

(3) المرجع نفسه ،ص16.

وبعد اتصال الغرب بالحضارة العربية اتصالا فعليا ومؤثرا، ظهرت طلائع المستشرقين ومعظمهم من الرهبان ومن أوائلهم في تلك الحقبة التاريخية راهب فرنسي يدعى جيبيرgebert المولود عام 938م، تخرج من جامعة قرطبة واعتبر من أوسع علماء عصره معرفة بالعلوم العربية وعين عام 999م حبرا أعظم وسمي بسلفستر الثاني ،فأنشأ مدرستين عربيتين بروما وفرنسا،كما ترجم المؤلفات العربية بإسبانيا إلى اللغة اللاتينية وقد ساعد اليهود في ذلك بعد أن اكتشف الأوروبيون ثروة إسبانيا العلمية[1]واستمرت حركة الترجمة قوية من العربية إلى اللغة اللاتنية فاطلعوا على الكنوز العلمية العربية وعلى أساسها بنوا حضارتهم، وكونت نخبة من العلماء المتخصصين في الدراسات العربية ويعتبرون من طلائع المستشرقين وكان هدفهم الاطلاع والفهم ثم الرد عليها ومن أهم الرهبان الراهب بطرس المبجل(1092م.1156م) رئيس دير كلوني وكان متحدثا باللغة العربية قام بترجمة القرآن الكريم [2]غير أن تلك الترجمة كانت أبعد ما تكون عن الدقة نتيجة التعصب الديني وكان غرضه من هذه الترجمة هو هداية المسلمين الى محاسن المسيحية ويعتبر من أوائل المبشرين الذين استخدموا العلم لرد المسلمين عن دينهم .

فكان الاستشراق في بدايته أداة من أدوات التبشير حيث سعى الرهبان والقساوسة إلى تعلم اللغة العربية والتضلع في الدراسات الإسلامية بغية فهم هذا الدين ثم نقضه من أساساته ورد أتباعه إلى ديانتهم ،وكانت صقلية وطليطله واسبانيا هي أكبر *المنافذ* التي استخدمها الرهبان لتعلم العلوم العربية رغم أن الفائدة بقيت خاصة بطبقة المثقفين ولم تمس عامة الناس. ومع ذلك بقي العالمان متجاوران وكانت معرفة كل واحد بالأخر ضئيلة للغاية فكانوا يعتبرون المسلمين وثنيين لا يؤمنون بالله و صوروهم صورا تقوم على الخيال أكثر من الحقيقة ونشأت الدعوة لمواجهة العالم الإسلامي عسكريا لإزالة خطره نهائيا ومنه قامت الحروب الصليبية التي كانت لها دور كبير في تطور التبشير والاسشراق حيث كانت مجالا خصبا لألاف من الكتب والمباحث والمقالات والتحليلات عن أسباب اندلاعها ونتائجها وأثارها السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية وكل طرف نظر إلى هذه الحروب من زاوية هو.

بعد" أن خفت حدة هذه المعارك بين الطرفين قامت علاقة تتسم بنوع من الصداقة وتعرف كل طرف على الأخر وعقدت أحلاف واتفاقيات كثيرة بين بعض الأمراء المسيحيين والمسلمين وبدأ الغرب يتعرف على الشرق وانمحت تلك الصورة القاتمة التي كان يحملها عن الشرق حيث لمسوا حضارة عريقة وثقافة سامية وشجاعة نبيلة وأخلاقا فاضلة وعند انتهاء هذه الحروب عام 1291م وخروج آخر الصليبيين من البلاد الإسلامية رجع المسيحيون إلى بلادهم ورافق ذلك استيلائهم على الآلاف من الكتب والمخطوطات العربية وأصبحت مصدرا للمستشرقين قديما وحديثا"[3]فقد كانت الحروب الصليبية إذا فرصة لجمع المخطوطات النادرة التي استفاد منها الغرب في مختلف المجالات وكانت سببا لمعرفة الإسلام والمسلمين أكثر والتي لاتزال في مكتباتهم ليومنا هذا.

(1)ساسي سالم الحاج :نقد الخطاب الاسشراقي، ص42.

(2)المرجع نفسه ،ص43.

(3) المرجع نفسه، ص 49.

انطفأت الحماسة التي دعت إلى قيام الحروب الصليبية بعد أن حدث ذلك الانشقاق بين الكنيسة والإمبراطورية وحدث تغيير في النظم الأوروبية بعد أن تأثرت بالمعارف الشرقية وعادت الدعوات التي تنادي بالعودة للشرق لكن الحل العسكري لم يجد آذانا صاغية، فكان الحل السلمي هو البديل وكانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو التبشير لتحقيق الآمال الضائعة وأهم من دعا لذلك هو روجر بيكون Roger bacon فانكبوا يدرسون تراثه الذي نقل إليهم عن طريق صقلية والأندلس وعن طريق الحروب الصليبية فنقله من اللغة العربية واللغات الشرقية [1]وأسسوا مدارس اللغات الشرقية في عواصم بلدانهم وخصصوا كراسي مستقلة في كبرى الجامعات لهذا التخصص.

وقد أنشأت المطابع والمجلات والمكتبات وقاموا بترجمة التراث الإنساني عن العربية واللغات الشرقية والاستعانة بمن يجيد هذه اللغات من النصارى والمسلمين واليهود فأنشأ دون ريموند الأول رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين سنة1130م[2] ،وقد ساهم الرهبان في حركة الترجمة مختلف العلوم من فلسفة وطب وكيمياء وصيدلية و العلوم الدينية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك، فحاولت البابوية أن تتخذ من التبشير بالمسيحية غاية قصوى لها و دراسة علوم الشرق وآدابه لمحاربتهم بسلاحهم ولهذا اهتموا بالاستشراق ونظموه وساندهم الأمراء والملوك.

وقد تخرج من الجامعات الأوروبية اللاهوتية العديد من الرهبان المثقفين ووقفوا معاركهم وثقافتهم على التبشير وهكذا تولت جيوش المبشرين بعد انحدار جيوش الحروب الصليبية واتخذت من الاستشراق وسيلة لتحقيق أهدافها حيث وجد الفرنجة ثروة علمية طائلة من نوادر المؤلفات العربية في شتى أنواع المعرفة فاستولوا على هذا التراث وجمعوه في مكتباتهم وعكف عليهم المستشرقون بحثا وتحليلا ولم يتركوا جانبا من جوانبه إلا وتناولوه بالدراسة والتحقيق فتكونت لديهم معارف واسعة عن الشرق من حيث سكانه وعاداته واقتصادياته وطرق تجارته ومواطن القوة والضعف فيه، فأرادوا معرفة هذا العالم والسيطرة عليه لكنهم اصطدموا بالعثمانيين مدافعين عن الإسلام وبعد أن أوقفوا زحفهم قاموا بالرحلات والكشوفات الجغرافية في القرن الرابع عشر، رافقها نمو لكتابات الرحلة التي امتزج فيها الواقع بكثير من الخيال كما في كتابات ماركوبولو (1254م-1324م)وكان لتلك الرحلات تأثيرها على نمو الخيال الشعبي الأوروبي إزاء الشرق وبالتالي على الأدب[3] ،ثم توالى الرحلة إلى الشرق فزاروا بلدانه وتعايشوا مع شعوبه، فصححوا كثيرا من أخطاء ماركوبولو وعرفوا الدروب والمسالك واتصلوا بالشعوب الشرقية وعرفوا عاداتهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم، فنقلوا صورة شبه واقعية عن الشرق .

---

(1) ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي ،ص50.

(2) عفاف سيد صبرة : المستشرقون ومشكلات الحضارة ،ص27.

(3) نبيل راغب: دليل الناقد الأدبي،دار غريب،القاهرة1998،ص34.

وفي القرن السابع عشر عاد الاهتمام الأكاديمي والعلمي للبروز نتيجة لما رافق عصر النهضة الأوروبية من شعور بالتفوق الحضاري ونتيجة الاحتياجات الاقتصادية والسياسية التي فرضها النظام الرأسمالي، فقد سبق تغلغل بريطانيا في الهند وحملة نابليون على مصر رحالة من الغرب جابوا تلك الأصقاع وكتبوا عنها تقارير وافية كانت نبراسا اهتدت به الدول الاستعمارية لغزو الشرق اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ،فالمستشرقون كانوا على هيئة قناصل ورحاله وسفراء و كانوا يهتمون بكل النواحي التي تخص الشرق عموما وكانوا يحصلون على المخطوطات ونوادر الكتب التي لايعادلها ثمن فقد، استنزفوا تلك الثروات الثقافية لشعوب الشرق وهو أمر بالغ الأهمية يبين لنا الأعمدة التي قامت عليها الدراسات الاستشراقية ،بالإضافة إلى الأهداف السياسية التي سعت إلى تحقيقها مختلف الدول الغربية عن طريق رحالتها وقناصلها وجيلهم من المستشرقين الذين مهدوا الأرضية للتغلغل الاستعماري الأوروبي المباشر وقد برز في القرن الثامن عشروالتاسع عشر عدد كبير من المستشرقين منهم سلفستردي ساسي ولوي ماسينون وارسنست رينان في فرنسا وجولدتزيهر و نودلكه وكارل بروكلمان في ألمانيا، ثم برز في انجلترا في القرن العشرين مرجيلوث وهاملتون جب واربري كانت لهم اهتمامات معرفية وبحثية مختلفة [2] .

إذا فمع زيادة اهتمام المستشرقين والدول الغربية بالشرق تطور الاستشراق فظهرت الكتب والترجمات وأسست الجامعات والمعاهد المتخصصة بالدراسات الشرقية وحققت المخطوطات ونشرت في المجلات والكتب وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية يعرضون فيها ماتوصلوا إليه في بحوثهم.

ولم يبق في عصرنا الحالي سوى مواد خاصة بالحضارة الشرقية تدرس في الجامعات الأوروبية والأمريكية ،فاتخذ الاستشراق الآن دربا جديدا ربما أصبح أكثر تخصصا فانشأ معاهد مختصة في دراسة الشرق الأوسط ودراسة شمال إفريقيا والشرق الأدنى، وأصبح هناك تقسيم جديد ليس كما كان سابقا فكل منطقة لها دراسات خاصة بها من أجل الهيمنة الاقتصادية والثروات التي يمكن أن تستغل رغم أن الشرق مازال يغذي القصص والروايات الحديثة التي ترجمت إلى أفلام سينمائية كما أن الأشرطة الوثائقية لها دور كبير في الدراسة الحضارة العربية والشرقية فهو استشراق ولكن بطرق جديدة، اختلفت في طرقها حيث أصبحت أكثر تطورا ونضوجا وحيادية لكن هذا لا يعني أن المضللين الذين يرغبون في تشويه صورة الغير غير موجودين ،فصورة الإسلام اليوم لدى الغرب هم من قاموا برسمها مشوهة قاتمة لا تمت للواقع في شيء حتى أنهم يحاولون توجيه هذه الأفكار إلى أبناء الشرق أنفسهم وإقناعهم بها .

---

(1) ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي، ص71.

(2) نبيل راغب: دليل الناقد الأدبي ،ص35.

3-أهداف الاستشراق: للاستشراق أهداف متعددة نذكر منها:

أ -الأهداف السياسية: كان الصراع الدائم بين الشرق والغرب يظهر أحياننا في شكل علاقات سلمية وأحيانا أخرى في شكل مواجهه عسكرية سافرة من اجل القضاء على تلك السيادة فقد طمع الغرب في السيطرة على البلاد الشرقية والاستيلاء على مقوماتها السياسية وثرواتها الاقتصادية حتى أن الحروب الصليبية قد وصفها المؤرخون بأنها كانت مشروعا كنسيا تستثمره الكنيسة بالدرجة الأولى لضرب أعدائها والتخلص من مناوئيها وتحقيق القدر الأكبر من مكاسبها،فقد ذكر المؤرخ إدوارد جيبون(1737-1764م) في دراساته عن الحروب الصليبية أن تلك الحروب تجسد الانتهازية لتحقيق المطامع الدنيوية التي طبعت مأسموه بالدوافع الروحية[1] أي أنها لم تكن سوى حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي من أجل تحقيق أطماع الكنيسة والدولة معا، لكن لتحقيق هذه الأطماع لا بد أن تكون له دراسات مفصلة لإعطاء فكرة واضحة وليس هناك من يقوم بتقديم هذه التقارير أفضل من المبشرين والمستشرقين الدين سخرتهم الحكومة الغربية لخدمة أغراضها الاستعمارية وتمثلت خاصة في تلك الرحلات التي قام بها الرواد الأوائل من المستشرقين لتقديم صورة جلية عن المجتمعات التي نوت أوروبا السيطرة عليها فقدموا لها ماتحتاج إليه من تراث الشرق لفهم عقليته وأمزجته وتفاصيل حياته ومواطن الضعف والقوة فيه، فاختلطوا بأهل الشرق باعتبارهم رحالة وقناصل ومبشرين يمهدون لتكون أرضية صالحة ومهيأة للاستعمار الغربي .

فتأسست الجمعيات الجغرافية والبريطانية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية وأرسلت التقارير الدورية المنتظمة لتعد خططا للتغلغل بناءا على تلك المعطيات وهكذا سخر الاستشراق في كثير من مراحله لخدمة الأغراض السياسية تمهيدا لاستعمار إفريقيا والشرق كلهوما قام به الرحالة فولني volneyخير دليل على ذلك حيث اعتمد نابليون في حملته على مص على كتابه" رحلة إلى مصر وسوريا"الذي أصدره في مجلدين عام1787[2].
فكثير من الرحالة استخدمت تقاريرهم في تحقيق السيطرة على الشرق ،فالدول الاوربية لم تستخدم المستشرقين من رحالة وقناصل ورجال استخبارات فقط لكنها استعانت بالإضافة إلى ذلك برجال الدين الذين اتخذوا التبشيروسيلة ظاهرية لتحقيق أهداف سياسية واستعمارية بعيدا عن الأغراض الدينية والتبشيرية ، ومنذ القرن التاسع عشر ظهرت هذه الأطماع بوضوح بعد قيام الدول الأوروبية بالاستيلاء على المغرب العربي والشرق الإسلامي والخليج العربي ومصر وسوريا والعراق ودول شرق آسيا.

ب-الأهداف الدينية:ولا أدل عليها أن بداية الاستشراق والعناية بنشره تعود أصلا إلى الفاتيكان باعتباره المعين الذي أملى طلائع الاستشراق بأوائل رجالاته ناهيك عن التعصب الديني والروح الصليبية والتكوين اللاهوتي لأغلب المستشرقين والدليل أن الكثير ممن اخترقوا الاستشراق وبرزوا في ميادينه كانوا قد عنوا في بداية حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية[3].فالدافع الديني يعتبر الأساس لبداية الاستشراق خاصة مع انتشار الإسلام وخوف المسيحيين على دينهم ،فكان لابد من التعرف على الدين الجديد و حضارته لمواجهته و التصدي له والطعن فيه والسعي لتشويه معالمه كما فعل الكثير من المستشرقين المتعصبين.

---

(1) النبراوي:الاستشراق، ص ص35،31.

(2)سامي سالم الحاج :نقد الخطاب الاستشراقي ،ص57.

(3)محمد البشير مغلي :مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب ،رسالة ماجستير،جامعة الأمير عبد القادر ،كلية العلوم الإسلامية، قسم الدراسات الاستراقية1990 ،ص27

ج- الأهداف العلمية : تعتبر مصادرو معالم الحضارة و الثقافة و العلم هي التي أيقظت الدوافع العلمية وأججتها في نفوس الغرب، فأعد لها العدة وجند لها جيش من المتخصصين في المجالات العلمية والأدبية والثقافية والفنية للبحث عن كنوز الشرق، فالشرق مهد الحضارات ومهبط الأديان وقد بدأ اهتمام المستشرقين بالشرق منذ قرون عدة وكان الهدف العلمي للاستشراق هو الذي حفز وشجع هؤلاء الرجال للتنافس على دراسة لغاته التي كانت مفتاحا للتعرف على أسراره في كافة المجالات، ورغم اعترافهم بفضل الحضارة الإسلامية على أوروبا من علم وفن وأدب وطب وفلك وصيدلة إلا أنهم مازالوا يشككون في أصول هذه الحضارة ،كما يشككون في العلم العربي والأدب العربي والنحو والقانون ومع ذلك بقيت الحقيقة الواضحة التي يسجلها بعض المنصفين بأن أوروبا تدين للعرب والمسلمين في قيام نهضتها الحديثة [(1)]،وقد قام المستشرقون عبر العصور المختلفة بجهود علمية واضحة لدراسة الشرق وتراثه فقاموا ببدل جهود عديدة منها التنقيب عن الآثار القديمة ودراسة اللغات القديمة والفنون وكان مقصدهم نبيل في الإطلاع على الأديان والثقافات والحضارات واللغات دون ما خلفيات بحيث تأتي أبحاثهم أقرب إلى الفهم الصحيح وظهرت جهودهم خاصة في الطبع والتأليف والتحقيق في المخطوطات والتعريف بالتراث وإعداد المعاجم وضبط الفهارس ، بالرغم من قلة أو انعدام المدد المصروف ليمثل هذه الأغراض العلمية المحضة والفردية في الغالب والتي تفتقد إلى الرواج والنشر والربح بسبب الأمانة والنزاهة والحياد، وهناك اتجاه ثاني يهدف إلى التشكيك والإنكار والتحليل والتفسير الغريب والتأويل الذاتي واعتماد القوالب الجاهزة في محاولة لفرض المفاهيم بتوجيه إيديولوجي أو سياسي مبيت، فتبدو غير موفقة وبدون مؤيدات علمية ،بالرغم من وفرة الإمكانات المادية ودعم الجهات الممولة مما لايستبعد تسترها تحت قناع الاستعمار[(2)] وقد لقي هذا الاتجاه رواجا لدى المتعصبين خاصة الكارهين للشرق وتراثه والراغبين في التفوق على الحضارة الشرقية.

د-الأهداف الاقتصادية: يمثل الاقتصاد قضية حيوية هامة بالنسبة للدول بل أنه من عوامل بقاء الدول واستمرارها وباعتبار الشرق مصدر هام للثروة والرخاء بما يملكه من موارد وثروات عديدة فقد كان مقصد الطامعين دائما وقد أدرك ذلك الأوروبيون منذ القدم وحاولوا امتلاك ثرواته.

ومن المعروف أن بلدان الشرق كانت تمد الإمبراطوريات القديمة بالمؤن ،فكان هناك قمح مصر وثرواتها الحيوانية وزيوت شمال أفريقيا وغلال وفاكهة الشام زادا لهذه الدول وفي العصور الوسطى كان الشرق الإسلامي يمثل مجال حيوي هام لسيطرته على طرق التجارة بالإضافة إلى مايمتلكه ومن ثمة تطلع الغرب لمشاركة شعوبه في تلك الثروة ،فكانت الحروب الصليبية كبداية والتي لم تحقق الكثير [(3)]،فقد باءت كل الحملات بالفشل وكانت مغانمها أقل مما كانت تصبوا لتحقيقه ،ومع ضعف الدول الإسلامية والدول الشرقية توالت محاولات السيطرة وكانت كل مرة تلجأ كل من الدوائر الحكومية والشركات المختلفة إلى المستشرقين بالبلدان المعنية تستطلعهم عن إمكانيات استغلال الثروات الباطنية والبشرية فيها وتستخدمهم في تنفيد مشاريعها ومن جهة أخرى وجد بعض المستشرقين الفرصة لإتخاد البحوث العلمية ونشرها وسيلة للثراء وكسب المغانم[(4)]،فقد كان المستشرقون السبيل الأمثل لإصدار هذه التقارير باعتبارهم أكثر اطلاعا ومعرفة لأحوال الشرق فكانت الحكومة تستخدمهم لمصلحتها.

(1)التبراوي: الاستشراق ،ص56.

(2) محمد البشير مغلى: مناهج البحث في الاسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب ،ص34.

(3)المرجع السابق ،ص44.

(4) المرجع السابق، ص29

4-أهم مدارس الاستشراق:

أ- المدرسة الفرنسية: تعود صلة فرنسا بالمسلمين إلى الوجود الإسلامي بالأندلس وقد كان للحضارة الإسلامية أثرها في الثقافة الفرنسية وأدابها في تلك الفترة، كما كان لهم اهتمام بالفلسفة والعلوم الإسلامية ،فاحتلت فلسفة ابن رشد مكانة كبيرة في دراساتهم. وتعتبر من أوائل المدارس التي اهتمت بإنشاء كراسي للغات الشرقية، كما أنشأت كراسي لدراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية .

ويعتبر انعقاد مجمع فينا تحت رئاسة البابا كليمانس الخامس عامي (1311-1312) الباعث على ظهور الاهتمام بالدراسات الاستشراقية[1] ،فاهتمت الكنيسة والحكومة الفرنسية باللغات السامية وقامت بتكوين أساتذة متخصصين في دراسة اللغات الشرقية للإفادة منهم خاصة في السلك الدبلوماسي الذي يتعامل مع الدول الشرقية ،فأنشأت الجامعات والمعاهد والمدارس مثل جامعة السربون التي أنشأت سنة 1258 والتي خصص فيها كرسي للدراسات الإسلامية والشرقية وأنشأ معهد للآداب ثم ألحق به معهد آخر وهو معهد الدراسات الإسلامية كما أسست المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية عام 1795[2] ، وأصبح لهذه المدرسة وزن كبير بين المدارس الأخرى وداع صيتها فجذبت إليها طلاب العلم من أنحاء أوروبا، فكانت هناك دراسات حول اللغة العربية الفصحى وكذلك اللهجات المحلية لشعوب الشرق الأوسط والمغرب العربي كما زودت نابليون بالمترجمين المتخصصين الذين استعان بهم في حملته على مصر 1798،هذا الأخير الذي أسس معهد مصر بالقاهرة وزوده بمطبعة عربية قامت بطبع العديد من الكتب والمخطوطات ذات العلاقة بالدراسات الشرقية ، وأسست بعد هذا المعهد الكثير من المعاهد في البلاد العربية التي تعنى بمثل هذه الدراسات مثل المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة أسس سنة 1880 ومعهد الدراسات العليا في الرباط والمعهد الفرنسي بدمشق ومدرسة الآداب العالية في الجزائر .

ولابد للدراسات التي تقوم بها هذه المعاهد والمخطوطات التي قامت بجمعها والقيام ببحوث حولها من مكاتب لضمها، فكان اهتمام فرنسا بالمكتبات الشرقية أيضا فتأسست المكتبة الوطنية بباريس التي احتوت على نحو سبعة آلاف مخطوطة مكتوبة بالعربية ،وكان للجامعات مكتباتها وكذلك للمستشرقين والرحالة والقناصل الذين استطاعوا الحصول على نوادر الكتب والمخطوطات العربية [3] .

وإذا ما انتقلنا إلى المجلات المتخصصة في هذا المجال والتي عنيت بنشر بحوث المستشرقين ودراستها نجد أن المدرسة الفرنسية قامت بإصدار العديد من المجلات والدوريات ومن أشهرها صحيفة العلماء التي تصدر كل ثلاثة أشهر للدراسات العربية والإسلامية نصيب كبير فيها، والمجلة الآسيوية التي أشرف عليها المستشرق دي ساسي في إصداراتها الأولى وكذلك المجلة الأفريقية التي تصدر في الجزائر منذ سنة 1856 ولا ننسى مجلة الأديان والمجلة التونسية ومجلة الدراسات الإسلامية التي صدرت سنة 1927 بإشراف ماسينون ونشرة المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق[4] تعتبر هذه من أهم المجلات المتخصصة وغيرها كثيرو هي مجلات ساهمت في نشر بحوث المستشرقين المختلفة وتحقيقاتهم للمخطوطات.

(1)النبراوي:الاستشراق ص-ص101،102.

(2)ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي ،ص103.

(3)المرجع نفسه ،ص108.

(4) المرجع نفسه ص-ص108،109.

لقد كان للمستشرقين الفرنسيين دور كبير في تحقيق التراث العربي ونشر المخطوطات حيث اهتموا بدراسة اللغة العربية ونحوها وآدابها فألفوا كتب عديدة تتناول هذه المجالات وأهم هؤلاء المستشرقين الفرنسيين الذين برزوا على الساحة الاستشراقية بوستيل Postel الذي ألف كتاب قواعد اللغة العربية وكتاب اللغة العربية والفينيقية وكتاب عادات وشريعة المسلمين ودرس اللغة العربية في جامعة فيينا وجمع العديد من المخطوطات خلال رحلته في الشرق وباعها لمكتبة هايد ليرج[1].والبارون دي ساسي Desacy 1758-1838 أحد مؤسسي الاستشراق الفرنسي، يعتبر شيخ المستشرقين تعلم اللغات الشرقية ودرسها دراسة معمقة وأصبح مترجما في مجمع جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية وترأس جامعة باريس عام 1815 له مؤلفات عديدة أهمها دراسة عن مصر من الفتح الإسلامي إلى الحملة الفرنسية وكتاب النحو العربي ،الذي يعتبر فريد من نوعه وكذلك المستشرق كاتر مير أحد تلاميذ دي ساسي تعلم العربية وركز على الدراسات الإسلامية والعربية فحقق وترجم الكتب والمخطوطات ونشر البحوث مثل بحثه حول جغرافيي العرب ومؤرخيهم ودي سلان الأيرلندي الأصل الفرنسي الجنسية 1801-1878 اهتم بالدراسات المغربية فترجم الجزء الخاص بالمغرب من مقدمة ابن خلدون وله بحوث ودراسات عديدة عن تاريخ المغرب[2]، أما أرنست رينان فقد زار الشرق واستقر في لبنان واهتم بالفلسفة الإسلامية والرشدية خاصة ،ألف عن ابن رشد وتلامذته وكتب تاريخ الأديان وعلاقة النحو العربي بمنطق أرسطو ولانستطيع سرد جميع المستشرقين وما قدموه من آثار فقد بقي الكثير منهم أمثال سوفاجيه (1901-1950) وليني بروفنسال (1894-1956) ولافاليه وفليش وماقام به بلاشير وشومي وديتيزو من نشرهم للقاموس العربي الفرنسي الإنجليزي [3] .

لقد اهتمت المدرسة الاستشراقية الفرنسية بكل ماله علاقة بالشرق والعالم الإسلامي فخصصت كما رأينا كراسي للدراسات الشرقية بالجامعات وأسست المعاهد المختصة والمجالات والدوريات لنشر بحوث المستشرقين الذين قاموا ببحوث ودراسات وألفوا كتب عديدة وقد امتازت الدراسات التي قاموا بها والتي ميزت المدرسة الفرنسية عن غيرها من المدارس الاستشراقية بأنها شاملة متقدمة حيث "لم تترك

ميدانا من ميادين المعرفة الشرقية إلا وتناولته بحثا ونقدا وتمحيصا له فقد تعرضت لجميع أنواع المعرفة الشرقية من لغات وآداب وتاريخ وجغرافيا وآثار فنون كما تعرضت للشرق كله من الناحية الجغرافية ولم تقتصر على الشرق الأدنى والدول الإسلامية بل تناولت بالإضافة إلى ذلك تركيا وفارس والحضارات الأشورية والبابلية والمصرية القديمة"[4] لقد كانت إذا المدرسة الفرنسية واسعة في دراساتها عل عكس المدرسة الإسبانية مثلا التي اهتمت بشمال إفريقيا خاصة وأهملت باقي المناطق أو بعض المدارس الأخرى التي اهتمت بأماكن محددة في دراستها.

---

(1) المرجع السابق ص،108.
(2) النبراوي: الاستشراق،ص-ص105،106.
(3) المرجع نفسه،ص110.
(4) ساسي سالم الحاج:نقد الخطاب الاستشراقي،ص110.

ب- المدرسة الإسبانية :

عرفت إسبانيا الحضارة الإسلامية العريقة التي ترعرعت على أرضها ونشرت نورها حتى أصبحت مركزا للعلوم يقصده طلاب العلم من كل البلاد الأوروبية لاغتراف العلم من جامعاتها هذه الحضارة التي تناولت كل مناحي المعرفة الإنسانية فصبغت المعرفة الأوروبية بالصبغة الإسلامية .

وتعتبر المدرسة الإسبانية من أقدم المدارس الاستشراقية حيث أدرك القائمون على الجامعات الإسبانية أهمية إنشاء الكراسي التي تهتم باللغات الشرقية ،وأول جامعة قامت بإنشاء هذه الكراسي هي جامعة سلامنكا Salamancaعام 1227 ،فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية في ربوع إسبانيا وبقيت مزدهرة حتى بعد خروج العرب منها، لكن روح التعصب الدينية ومحاكم التفتيش التي نكلت بالعرب واليهود جعلتهم يتركون هذه البلاد ويهاجروا منها فخرج عدد كبير من المثقفين ،فخمدت الدراسات العربية والإسلامية حتى تأسست جامعة غرناطة عام 1540 (1) ،كما أنشأت جامعة مدريد عام 1504 وتراجعت الدراسات الاستشراقية في هذه الفترة حتى القرن السابع عشر من أجل تحقيق أهداف دينية وثقافية وسياسية واستعمارية ،حيث أولت للغة العربية اهتماما كبيرا وكذلك اللغات الشرقية فبلغ عدد الكراسي في القرن السابع عشر خمسة وعشرون كرسي موزع على عدد من الجامعات مثل جامعة إشبيلية ، بالما، برشلونة ، بلنسة ، سرقسطة، مدريد ، غرناطة ، كما اهتمت إسبانيا بالمكتبات فكانت هناك مكتبات كثيرة تحوي عدد لايحصى وما يملكه من علوم سواء كانت في الطب أو الفلك أو الرياضيات أوالفن أو الموسيقى وغيرها.

ففي القرن الثامن عشر قام الملك كارلوس الثاني عشر بإضافة إنشاءات جديدة للمكتبة الملكية وأعاد تنظيم مكتبة الأسكوريال وكان يهتم كثيرا بالآداب والعلوم الإسلامية فاستدعى عددا من الرهبان اللبنانيين لتعليم اللغة العربية وشجع على تعليمها(2) وهذا يبين الدور الذي لعبه رجال الدين في الدراسات الاستشراقية فألفوا حول اللغة العربية وفقهها وقواعدها وأنشأت أيضا المدارس التي تهتم بالدراسات العربية مثل مدرسة مدريد سنة 1933 وتفرع عنها معهدان للبحوث الشرقية في كل من مدريد وغرناطة وفي عام 1939 أنشئ معهد الدراسات العربية ثم معهد الدراسات الإفريقية ومعهد الدراسات السياسية الذي يضم قسم للدراسات الإسلامية المعاصرة كما أنشأت مدرسة الأسس العليا في مدريد وفيها تدرس اللغة العربية وعام 1950 تأسس المعهد المصري للدراسات الإسلامية وعام 1946 قام الجنرال فرانكو بإنشاء المعهد الماروني اللبناني في سلامنكا ، كل هذه المعاهد المتخصصة تبين مدى اهتمام المدرسة الإسبانية وسعيها للإلمام بالمعارف الشرقية فكانت الحكومة الإسبانية "وزارة التعليم" تشجع على زيادة الكراسي المتخصصة في اللغة العربية في الجامعات كما أنها أعدت مشروعا لتدريس اللغة العربية في الثانويات (3) .

كما كان للمجلات والدوريات نصيب كبير في الاهتمام بهذه الدراسات وكذلك الأمر بالنسبة للمطابع والمتاحف الشرقية والتي أسهمت في حفظ تراث الشرق بإسبانيا عن طريق طبعه ونشر المخطوطات والبحوث والدراسات التي تهتم بالشرق ،لقد كان للمستشرقين الإسبان دورا كبيرا في تنمية الدراسات الاستشراقية.

---

(1) فتيحة النبراوي: الاستشراق،ص62.

(2) ساسي سالم الحاج: نقد خطاب الاستشراق ، ص137.

(3) المرجع السابق ، ص-ص 62،63 .

فدرسوا اللغات الشرقية والعربية والفارسية، العبرية،التركية واهتموا بتاريخ الحضارة الإسلامية فقاموا بدراسة الأندلس والعلاقات الإسلامية المسيحية وتأثيرا لإسلام على إسبانيا وتحقيق المخطوطات ونشر الأبحاث حولها واهم المستشرقين البارزين في المدرسة الإسبانية باسكوال جينجوس Gamgos توفي عام 1897 ويعتبر المؤسس الحقيقي لها حيث كرس للغة العربية في جامعة مدريد 1843 قام بفهرسة المخطوطات العربية الموجودة بمكتبة الأسكوريال له كتاب عن تاريخ المسلمين في إسبانيا وكتب أخربوقد تتلمذ على يديه جيل من المؤرخين.

وكذلك المستشرق فرنانديز غونزاليس له كتاب الوضع الاجتماعي والسياسي للمسلمين الذين بقوا في قشتالة بعد سقوط إسبانيا وكذلك هناك المستشرق فرنسيسكو كوديرا Goderaأبرز المستشرقين في القرن التاسع عشر عين أستاذ كرسي للعربية وله دراسات نقدية عن التاريخ العربي في إسبانيا [1] وبيدرو ذي ألكالا Pedro de alcala تعلم اللغة العربية وأتقنها ، إهتم بتأليف المعاجم أهمها معجم عربي قشتالي وله مصنف لقواعد اللغة العربية ويعتبر أول مصنف في أوروبا وكذلك المستشرق سيكودي لوثينا ولد عام 1901 ، تخرج من جامعة غرناطة والتحق بالسلك الدبلوماسي ممثلا للحكومة الإسبانية في المغرب وعين أستاذا للغة العربية بجامعة غرناطة سنة 1924 والتي مثلها في مؤتمر المستشرقين الدولي في بون عام 1952 وكامبريدج عام 1954 [2] ، يعتبر هؤلاء أهم مستشرقين المدرسة الإسبانية ولايزال الكثير منهم لايسع المقام لذكرهم ومع كثرة المستشرقين وتعدد الدراسات التي لا تحصى لابد أن تكون للمدرسة الإسبانية مميزات تميزها عن المدارس الاستشراقية الأخرى حيث صبت جل اهتمامها على ماتركه العرب في إسبانيا من كتب ومؤلفات وآثار عربية، تمتاز بالعمق في التحليل والوضوح تأتي نتائجها في الغالب مطابقة للفروض العلمية التي يفرضها الباحث في مقدمة بحثه مثل دراسات آسين ، بلاسيوس، كوديرا ، وعلى عكس المدارس الأخرى فإن المدرسة الإسبانية لم تستغل هذه الدراسات لأغراض سياسية لكنها استغلتها غالبا لكنها استغلته لأغراض دينية ،فقد تأسس الاستشراق على يد القساوسة والرهبان الذين سعوا لنشر المسيحية.

ويعتبر الاستشراق الإسباني استشراق متخصص في الحضارة الإسلامية العربية حيث لم يهتموا بالشرق الأدنى كالصين والهند وبلاد فارس فدرسوا حضارة الأندلس والمغرب العربي وكان شاملا غير متخصص في فرع من الفروع[3].

إذا فالمدرسة الاستشراقية الإسبانية دور هام وقيمة كبرى في الدراسات الاستشراقية ومنهم من يعتبرها أول المدارس الاستشراقية باعتبار خضوعها للسيطرة الإسلامية وباعتبار الثروة الثقافية التي تركها لها المسلمون بعد خروجهم منها هذه الثروة التي أصبحت جزء من تراث إسبانيا ومادة دسمة لدراسات المستشرقين.

---

(1) سامي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي، ص13.

(2) النبراوي: الاستشراق ص-ص،65،66،67.

(3) المرجع السابق: ص-ص140،141.

ج-المدرسة الإيطالية:

تعتبر إيطاليا مركز الكنيسة الكاثوليكية ومركز البابوية وصاحبة التأثير على العقلية الأوروبية سلبا وإيجابا . وقد كان للفاتيكان دور هام في التوجيه إلى الاهتمام بالشرق ولغاته وحضارته ،فشجعت الترجمة والمترجمين مما جعلها من اسبق المدارس الأوروبية نشأة وتطورا وإسهاما في الدراسات خاصة وأن لها علاقة تاريخية وجغرافية وثيقة بشمال إفريقيا والشرق وترجع هذه العلاقة إلى قرون سحيقة عندما استولت روما على هذه المناطق واستعمرتها لأحقاب طويلة إلى أن طردها العرب واستولوا على صقلية وجنوب ايطاليا ، هذه العلاقة امتدت عصورا طويلة بين مد وجزر وبين السعي لتحقيق أهداف دينية وبين تطويرها لتحقيق أهداف سياسية واستعمارية وبالرغم من غلبة هذه الأهداف على المدرسة الإيطالية فإنه قد صاحبه في نفس الوقت اهتمام علمي واضح منذ تجدد تلك العلاقات في صقلية ومنذ أن بدأت الجامعات الايطالية تهتم بالدراسات العربية والإسلامية [1]·

فكان لنشأة الجامعات الايطالية وعناية أساتذتها بالدراسات الشرقية والدراسات اللاهوتية والقانونية ودراسات اللغات القديمة واللغات الشرقية خاصة العربيةأثر واضح وملموس في قيام هذه المدرسة "فقد كانت جامعة بولونيا أسبق الجامعات الايطالية إذ أسست في عام 1076م وتبعتها جامعة نابولي في عام 1224م ثم جامعة سينا 1246م وجامعة روما 1248م وجامعة فلورنس 1321م"[2]، وكان هناك تأسيس مراكز للغات الشرقية في روما وفلورنسا ومعهد الدراسات الشرقية في روما والمعهد البابوي للكتاب المقدس والمعهد البابوي للشرق والمعهد الشرقي الذي تأسس عام 1229 م واهتم بصفة خاصة بالشرق الإسلامي والجمعية الآسيوية الإيطالية والجمعية الإيطالية للدراسات الشرقية وأدى كل هذا إلى إنشاء كراسي للغات الشرقية فأنشأت كل جامعة من الجامعات الإيطالية كرسي لدراسة موضوع يخص الشرق كالأدب العربي واللغة العربية و اللغات السامية واللغات الشرقية أو الدراسات الإسلامية.

ويضاف إلى المعاهد والجامعات المذكورة اهتماما بالمكتبات المتخصصة في الدراسات الشرقية كالمكتبة الفاتيكانية التي تظم نوادر المخطوطات العربية والإسلامية والمكتبة البروزيانية تضم ألف وأربعمائة مجلد عربي والمكتبة المديتشية ومكتبة بولونيا التي تضم 459 مخطوط[3]، كل هذه المكتبات والجامعات تعطينا صورة عن اهتمام إيطاليا بالدراسات الاستشراقية فإلى جانب كل هذا صدرت العديد من المجلات والمطبوعات والحوليات والفهارس خلال القرن الثامن عشر .

وفي مطلع القرن الماضي أنشأت الحكومة معهد الدراسات الشرقية والمعهد الإيطالي لإفريقيا والمؤسسات العلمية مثل كايتاني caetani وتعنى بنشر المخطوطات والدراسات والبحوث المتخصصة في الشرق الأدنى [4]

أما أهم المستشرقين الإيطاليين فنذكر منهم كارلوا نيللنو ويعد من أشهر المستشرقين الايطاليين الذين تركوا بصمات واضحة في الاستشراق تخصص في مجال اللغة العربية بالجامعة.

---

(1)سامي سالم الحاج :نقد الخطاب الاستشراقي ،ص118.

(2)النبراوي: الاستشراق، ص71.

(3)المرجع السابق ،ص118.

(4)المرجع السابق ، ص73.

وعين أستاذا في المعهد العلمي الشرقي لتدريس اللغة العربية، أولى عنايته لدراسة تاريخ البلدان العربية و قام بزيارة العديد منها و درس في جامعة مصر للفلك والجغرافيا منذعام1909 انتخب في عدد من المجامع العلمية عضوا منها مجمع دمشق و القاهرة كما أشرف علي مجلة الشرق الحديث، من أشهر مؤلفاته تكوين القبائل العربية قبل الإسلام، الفلسفة الإسلامية، تاريخ علم الفلك عند العرب[1]. وكذلك ليوني كايتاني مؤلف الحوليات الإسلامية حيث برز في الدراسات الإسلامية وتناول فيها التاريخ الإسلامي، كما لا ننسى مساهمات جويدي الكبير الذي برز في اللغات السامية وألقى دروس الأدب العربي بالجامعة المصرية وله إنتاج غزير في الأدب العربي الإسلامي أما جويدي الابن فقد اقتفي أثر أباه في ميدان التخصص و التدريس في جامعة القاهرة أما سانتلانا فقد اهتم بالجوانب القانونية العربية و تبحر في الشريعة الإسلامية وشارك في وضع القوانين التونسية إبان الاحتلال الفرنسي [2]،وأيضا فرنشيسكو جابريلي أحد كبار المستشرقين الإيطاليين اهتم باللغة العربية وقد أصبح كبير الأساتذة في جامعة روما اهتم بدراسة الشعر العربي وترجمة مخطوطات التاريخ الإسلامي وكان عضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي في دمشق له مؤلفات كثيرة منها هارون الرشيد والحرب بين الأمين و المأمون، تاريخ المسلمين للحروب الصليبية، و دراسة عن الشنفرى وله كتاب تاريخ حضارة الإسلام وعرب صقلية وعرب إسبانيا وهناك مستشرقين كثر لايتسع المقام لذكرهم، أما أهم ماميز الدراسات الاستشراقية في إيطاليا مع الإشارة إلي أنها لا تختلف عن الخصائص العامة للمدارس الاستشراقية الأخرى فقد بدأت لتحقيق أغراض دينية ثم تطورت لتحقيق أغراض تجارية وسياسية واستعمارية وركزت على الدراسات العربية الإسلامية خاصة وشمال إفريقيا وإفريقيا الشرقية التي احتلتها إيطاليا كالحبشة وأريتيريا و الصومال ،كما برز العديد من المستشرقين الإيطاليين الذين وقفو ا حياتهم على الأغراض العلمية دون السعي إلى تحقيق أغراض سياسية أو استعمارية مثل كايتاني جويدي ، سنتالانا ونيللينو وجيبرائيلي وأموري وفوزلاني وليفي ديلا فيدا وبرنود وكاتي المتخصص في الشريعة الإسلامية، إلا أننا لانغفل على العديد من المستشرقين الإيطاليين الذين وضعوا مواهبهم وعلومهم في خدمة الاستعمار الإيطالي في شمال إفريقيا وشرقها ومع ذلك فقد ساهمت الدراسات الاستشراقية الإيطالية في جمع الألاف من الكتب العربية الإسلامية القيمة والتي ثم الحصول عليها عن طريق القساوسة والرهبان والسفراء والتجار الذين زاروا الشرق وتجولوا فيه منذ الحروب الصليبية حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين وكانت نتيجتها هذه الدراسات العربية والإسلامية التي نشرت في الآفاق[4].فقد كان لايطاليا دور كبير في الدراسات الاستشراقيةمع هذا الكم الهائل من المستشرقين و الجامعات والمكتبات والمجلات المتخصصة التي أسهمت في التعريف بالشرق وتراثه وخاصة التراث العربي والإسلامي سواء كانت بحيادية ومنطقية أو كانت بتعصب وبعد عن الموضوعية.

(1) النبراوي : الاستشراق ،ص-ص78،79.

(2) ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي ،ص-ص119،120.

(3) المرجع السابق ،ص80.

(4) المرجع السابق ،ص 123 .

وعين أستاذا في المعهد العلمي الشرقي لتدريس اللغة العربية، أولى عنايته لدراسة تاريخ البلدان العربية و قام بزيارة العديد منها و درس في جامعة مصر للفلك والجغرافيا منذعام1909 انتخب في عدد من المجامع العلمية عضوا منها مجمع دمشق و القاهرة كما أشرف علي مجلة الشرق الحديث، من أشهر مؤلفاته تكوين القبائل العربية قبل الإسلام، الفلسفة الإسلامية، تاريخ علم الفلك عند العرب[1]. وكذلك ليوني كايتاني مؤلف الحوليات الإسلامية حيث برز في الدراسات الإسلامية وتناول فيها التاريخ الإسلامي، كما لا ننسى مساهمات جويدي الكبير الذي برز في اللغات السامية وألقى دروس الأدب العربي بالجامعة المصرية وله إنتاج غزير في الأدب العربي الإسلامي أما جويدي الابن فقد اقتفي أثر أباه في ميدان التخصص و التدريس في جامعة القاهرة أما سانتلانا فقد اهتم بالجوانب القانونية العربية و تبحر في الشريعة الإسلامية وشارك في وضع القوانين التونسية إبان الاحتلال الفرنسي [2]،وأيضا فرنشيسكو جابريلي أحد كبار المستشرقين الإيطاليين اهتم باللغة العربية وقد أصبح كبير الأساتذة في جامعة روما اهتم بدراسة الشعر العربي وترجمة مخطوطات التاريخ الإسلامي وكان عضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي في دمشق له مؤلفات كثيرة منها هارون الرشيد والحرب بين الأمين و المأمون، تأريخ المسلمين للحروب الصليبية، و دراسة عن الشنفرى وله كتاب تاريخ حضارة الإسلام وعرب صقلية وعرب إسبانيا وهناك مستشرقين كثر لايتسع المقام لذكرهم، أما أهم ماميز الدراسات الاستشراقية في إيطاليا مع الإشارة إلي أنها لا تختلف عن الخصائص العامة للمدارس الاستشراقية الأخرى فقد بدأت لتحقيق أغراض دينية ثم تطورت لتحقيق أغراض تجارية وسياسية واستعمارية وركزت على الدراسات العربية الإسلامية خاصة وشمال إفريقيا وإفريقيا الشرقية التي احتلتها إيطاليا كالحبشة وأريتيريا و الصومال ،كما برز العديد من المستشرقين الإيطاليين الذين وقفو ا حياتهم على الأغراض العلمية دون السعي إلى تحقيق أغراض سياسية أو استعمارية مثل كايتاني جويدي ، سنتالانا ونيللينو وجيبرائيلي وأموري وفوزلاني وليفي ديلا فيدا وبرنود وكاني المتخصص في الشريعة الإسلامية، إلا أننا لانغفل على العديد من المستشرقين الإيطاليين الذين وضعوا مواهبهم وعلومهم في خدمة الاستعمار الإيطالي في شمال إفريقيا وشرقها ومع ذلك فقد ساهمت الدراسات الاستشراقية الإيطالية في جمع الآلاف من الكتب العربية الإسلامية القيمة والتي ثم الحصول عليها عن طريق القساوسة والرهبان والسفراء والتجار الذين زاروا الشرق وتجولوا فيه منذ الحروب الصليبية حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين وكانت نتيجتها هذه الدراسات العربية والإسلامية التي نشرت في الأفاق[4].فقد كان لايطاليا دور كبير في الدراسات الاستشراقيةمع هذا الكم الهائل من المستشرقين و الجامعات والمكتبات والمجلات المتخصصة التي أسهمت في التعريف بالشرق وتراثه وخاصة التراث العربي والإسلامي سواء كانت بحيادية ومنطقية أو كانت بتعصب وبعد عن الموضوعية.

(1) النبراوي : الاستشراق ،ص-ص78،79.

(2) ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي ،ص-ص119،120.

(3) المرجع السابق ،ص80.

(4) المرجع السابق ،ص 123 .

الفصل الثاني: الاستشراق والآخر

1- الاستشراق وصورة الآخر:

وكل الثقافات الإنسانية والحضارات البشرية المختلفة تحمل صورة ما للآخر، هذه الصورة التي نشأت عقب الصراع العنيف بين الإنسان والإنسان منذ العصور الأولى لنشأته وتطوره ولا يزال هذا الصراع مستمرا إلى أجل يستحيل تحديده فكل ماترى الذات أنه مخالف لها أو مختلف عنها نطلق عليه اسم الآ خر وكل صراع يبتدأ من وضع كل ذات للأخرى في حيز الأخرية ولايكون هناك صراع مالم يكن هناك آخر بالنسبة للذات سواء ذات فردية أو جماعية .

فالآخر هو ذاك الذي تقضي الذات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلها في العادات والتقاليد والأذواق واللسان والدين فالناظر في الصورة التي ترسمها الذات للآخر إذا يرى أن تلك الصورة عبارة عن مزيج غريب غير متجانس من العواطف والأفكار فقد تكون في الوقت ذاته تحمل مشاعر الإستشباع و الاستهجان والاستغراب من جهة وقد تطفح بمشاعر الاستحسان والتقدير والتعظيم من جهة أخرى والآخر إما يكون همجيا متوحشا يلزم أخذ الحذر والحيطة منه بل حتى محاربته والقضاء عليه متى استطاع وإما يكون مستأنسا متحضرا تطيب مجالسه ومشاهدته بل قد يسعى إلى معاشرته والتعرف إليه أكثر ولكن الآخر يبقى في كل لأحوال غريبا ومدهشا وموضع تعجب[1] .

والآخر إذا هو نقيض الذات يقضي بإقصاء كل مالا ينتمي إلى نظام الفرد أو الجماعة أو المؤسسة ويكون هذا النظام ذا قيمة اجتماعية وأخلاقية وسياسية و ثقافيه أما أهم سمة للآخرفهي تحبيده لما هو غير مألوف وغيرمعروف بالنسبة للذات وانتمائه لكل مايهدد الوحدة والصفاء وتأتي أهميته من إسهامه في تأسيس الذات وما يتعلق بها ومفهوم الآخر يتأسس على مفهوم الجوهر أي أن ثمة نسبة أساسية جوهرية تحدد الذات،وفي معالجة إدوارد سعيد للإستشراق اعتبرأن الشرق هو الآخر بالنسبة للغرب وأن الغرب يسير ضد كل السمات التي يختلف بها الشرق عن الغرب بوصفها سمات دونية وربما غير آدمية لكن المفارقة تتجسد دائما ضمن خطاب الذات والآخر وهي مفارقة الجوهر نفسه أي أن السمة أو السمات المائزة التي تجعل الشرق شرقا لا علاقة لها بالكيفية التي يعامل بها الغرب آخره الشرق وهي مفارقة الإيديولوجيا عموما[2] .

لكن الصورة التي ترسمها الذات للآخر لاتكون صورة عفوية أو اعتباطية بل إنها عكس ما نتصورفهي تكون نتيجة وعي ومعرفة سابقتين أي لابد من توفر مرجعية تقوم على قواعد واضحة تتكون من قيم عديدة سواء كانت قيم دينية أو معرفية أو جمالية أوأخلاقية أي الوعي الثقافي الذي تقوم عليه الذات وهو الذي يتكون نتيجة التأثر الطويل والمتواصل بما تحتوي عليه الثقافة من قيم وعادات وتقاليد ومعتقدات و أعراف وقوانين وكل الأنماط السلوكية والأخلاقية التي تشكل الذات وتميزها عن الآخر.

---

(1)سعيد بن سعيد العلوي: أوروبا في مرآة المرحلة دار السويدي للنشر 1 أبوظبي 2006

(2)نبيل راغب: دليل الناقد الأديب ص22 .

إذا فالأمر يؤول في رسم صورة الآخر وفي تعين دلالته ومعناه إلى الثقافة التي تنتمي إليها الذات أو الأنا والتي تتحدث عن الغير المخالف ،فكل من يختلف عن الذات من جهة الدين واللسان والعادات والتقاليد يمثل الآخر فالفرس والمصريين هم الآخر بالنسبة لليونان والرومان فقد كانت نعوت الهمجي والمتوحش والغريب متداولة عند الرومان وكانت تعني عندهم ماكان بعيد وغريب عن مايقرره الوعي الثقافي الروماني، لكنها لاتطلق على الجيوش التي تقاتلها في اسبرطة أو الشعوب الرومانية التي تقاتل ضد أثينا بين الحين والآخر. ونفس الشيء يحدث في عصرنا الحالي إذا تأملنا ماكتبه الباحثون الغربيون من انثربولوجيون ومستشرقون ومؤرخون في مؤلفاتهم ومختلف الأحكام التي أطلقوها من أحكام التوحش، البدائية، فيما كتبوه عن أقوام سهول الأمازون أو أدغال أفريقيا أوغابات أمريكا الجنوبية،ومن هنا يمكننا معرفة المنظومة المرجعية التي يصدر عنها أولئك الباحثون وهي مرجعية المركزية الثقافية الأوروبية، فصورة الآخر ترسمها الذات وهي ماتعتقد أن الآخر يكون عليها[1] ،أي أنها تنظر إلى الغير عن طريق حكم ومرجعية سابقة وحيث يتكرس الحكم المسبق في التداول العام ويكتسب طابع الاستمرارية في الذاكرة الذاتية والمعنية الفردية يصعب بعد ذلك زعزعته وتغييره ولهذا السبب" يتعين الانتباه إلى مايقال ومالايقال وما يفكر فيه حيث تحل الصورة محل الواقع سيما إذا اقترنت بمشاعر الضدية واندرجت ضمن سياق الصراع والصراع على المواقع والمصالح والرموز صراع يحركه دين وينفذه جنود وتنظم حوله حملات دعائية تعطي للآخر صورة شيطانية قد تشوه الوقائع بصورة متعمدة واعية أحيانا أو بشكل غير واع في أحيان أخرى". [2]

وأهم من اهتم بصورة الآخر وكل مايتعلق به علماء الاستشراق حيث قاموا بدراسة الشرق الذي يمثل الآخر المغاير بالنسبة للغرب فدرسوا كل مايتعلق به ،فاعتنوا بتراث الهند والصين وآشور وبابل ومصر الفرعونية وتراث فارس والتراث العربي الإسلامي وحضارته وهو أكثر مايهمنا في دراستنا هذه حيث أكب فريق كبير من علماء الغرب على دراسة هذه الحضارة العظيمة بما فيها من دين ولغة وفلسفة وأد اعو هذه الدراسات في كتب كثيرة ومجلات عديدة ثم قاموا بجمع خلاصة هذه الكتب في دائرة المعارف الإسلامية، لكن هذه الآراء التي كونوها اختلفت من مستشرق إلى آخرومن فئة إلى أخرى كل على حسب العامل الذي دفعه إلى دراسة هذه الحضارة سواء أكان تعصبا أو حبا أو رغبة في زيادة المعرفة وتغيرت هذه النظرة للآخر (الشرق)حسب العصور من آخر يتخوف منه يجب أن يشكك فيه وأن يعادي أو نظرة متفهمة. ويعود هذا الاهتمام إلى ثلاثة عوامل عامل حضاري فالحضارة الإسلامية أمر مختلف عما في الغرب وعامل سياسي إيديولوجي وارتباطهما بالدين واختلاف هذه الإيديولوجية عما يوجد عندهم وعامل اقتصادي فالشرق ميدان رحب للتجارة فكل ذلك يدعو الغربيين إلى كشف هذا العام وسره أو لنقل أن العلاقة بين الشرق والغرب اتحدت طابع الغالب والمغلوب كما قال إدوارد سعيد شرق صنعه الغرب فصورة الشرق الذي يمثل الآخر للغرب الآن هي صورة أعطاها الغرب له وقام بتكوينها عبر الزمن، فكانت آراء المستشرقين من أكثر الأمور التي رسمت هذه الصورة [3] .

(1) سعيد سعيد العلوي : أوروبا في مرآة المرحلة ،ص-ص16،17.

(2)أفاية نورالدين :"الغرب المتخيل،المركز الثقافي العربي ، ط1، بيروت 2000، ص 132 .

(3) نزيه كبسي : ما الاستشراق؟ وماسمته؟ ومامساراته؟ مجلة المعرفة ع227 ، 1981، ص214 .

2- تأثير الرؤية المتعصبة على نظر المستشرقين للآخر :

يعود تشكل صورة الأنا الشرقي لدى الأنا الغربي لأزمنة ولت وعصور خلت فهي لم تتكون في العصور الحديثة، كما أنها لم تتشكل بالصدفة بل تعود للعلاقات المتغيرة بين الشرق والغرب التي نقلتها لنا الرحلات القديمة والتي كونت لنا الصورة الأولى التي نقلت عن الآخر، فقد سجلت الانطباعات الأولى وكانت غير بعيدة عن العوامل الذاتية و عبرت تلك الانطباعات عن دوافع الكاتب أو الرحالة ، ولم تكن نقلا للواقع المكتوب عنه في حقيقة الأمر كما لم تكن هناك صورة موحدة ثابتة بل كانت هناك صور متغيرة ومزيفة تخضع لحاجات ودوافع ورغبات الغرب .

وإذا أردنا معرفة كيف تأثر المستشرقين بالرؤية المتعصبة للآخر لابد لنا من تفحص الأسباب التارخية لتشكل صورة الشرق لدى الغرب في منظورهم الخاص وأسباب العداء خاصة بعد ظهور الإسلام، فإذا رجعنا إلى الفترة اليونانية الرومانية وجدنا كتابات كل من هيرو دوت المؤرخ اليوناني الشهير قبل الميلاد والذي كتب عن الرحلة التي قام بها إلى كل من مصر وسوريا وبلاد الرافدين، كما نجد المؤرخ ديو دورت في القرن الأول قبل الميلاد والذي زار أيضا مصر، فنجد أنهما كتبا عن حياة الشعوب التي زاروها فتحدثاعن عاداتهم وتقاليدهم وعن أساطيرهم وعن النيل ،فكانت هذه الكتابات البذرة الأولى التي ساعدت على تشكل الصورة الأولى للشرق في عيون الغرب فكانت الأساطير والسحر والعاطفة سمة الشرق أمام عقلانية الغرب.[1]

فتبدو نظرتهم تلك في ذلك الوقت وكأنها خلقت وتشكلت مع أقاصيص وحكايا وأساطير الشرق، فكان مكانا للمشاهد *الغريبة والكائنات العجيبة والمغامرات ثم ظهرت المسيحية في الشرق وانتشرت حتى سادت في الغرب* الذي رحب بها واحتضنها وقام بحمايتها ونشرها في أصقاع الأرض، ليظهر الإسلام بعد ذلك كمنافس قوي لها فانتشر في بدايته في الجزيرة العربية ثم جاءت فترة الفتوحات الإسلامية التي ضمت مساحات واسعة من آسيا وإفريقيا ووصلت حتى أوروبا وسيطرت على جزء منها، فكانت سببا لخوف الأوروبيين من هذا الدين الجديد على مسيحيتهم مما أيقض نزعتهم الدينية للدفاع عن دينهم وبلادهم وتحريرها من أيدي هؤلاء الغزاة الجدد الذين يريدون تغيير معالم حضارتهم التي يعتزون بها بواسطة تعاليم هذا الدين الجديد الذي يدعو للتوحيد والحرية .

" إذ أن تلازم اعتناق أوروبا للمسيحية مع التوسع الروماني واعتناق المشرق العربي للإسلام مع التوسع العربي وفتوحاته مايشكل خطرا وفق هذه المعادلة على وجود أوروبا برمتها ومن هذا المنطلق أصبحت النظرة إلى الإسلام محكومة بعداوة تماهى فيها الخطر الديني مع الخوف من دوبان الهوية الحضارية لأوروبا "[2].

إذا فقد كان الإسلام هو العدو الرئيسي لأوروبا المسيحية فظهر هذا الكره في قصص الحجاج والتجار حيث كان الشعور العدائي لهم يظهر بصورة واضحة في الحكاياوالقصص التي يروونها.

---

(1)نديم قاسم نجدي: أثر الأستشراق في الفكر العربي المعاصر دار الفرابي، ط1، بيروت 2005، ص61 .

(2)المرجع نفسه ،ص64 .

لقد كانت هذه الحكايا تؤثر بشكل كبير على عقول الناس وحكمهم على المسلمين وخير دليل على ذلك هو ما جاء في رحلة الأوروبي فريديك بربروزا الأول في القرن 12م الذي زار الصحراء العربية زمن الحملات الصليبية حيث عاش مع البدو فترة من الزمن وكذلك رحلة فون أولدنبرغ سنة 1211 رجل الدين الذي أبدى قلقه من سيطرة المسلمين على القدس، رغم أنه أشار إلى تسامحهم ، فكانت صورة الشرق تأتي بألوان وأنواع عدة حسب مصدرها سواء أكان من التجار أو الحجاج أو المغامرين حسب الدافع إلى رسم تلك الصورة، فكان المسلمون كفرة ووثنيون حسب ما أملته الكنيسة وكان مكان للغرائب والعجائب حسب المغامرين والتجار وكل نظرة مغايرة يجب أن تهمش ولاتؤخذ في الحسبان حتى لاتشوش ماترسخ في أ ذهان العامة من أجل الحفاظ على تماسك المجتمع خاصة في تلك الفترة العصيبة من تراجع المسيحية وسيطرة الإسلام [1].

فكان من مصلحة الغرب أن يحافظ على صورة للشرق تكون مشوهة ومسيئة للكيان الشرقي تقوم على التعصب لأن هذه العصبية تخدم مصلحته "غير أن تلك الصورة كان فيها شيء من الترقب والتعجب بسبب غرابتها وعدم تطابقها مع مقاييس الذات الغربية، أضف إلى ذلك انكماش الغرب على نفسه مدة أضحى فيها الغريب غريبا بالمطلق... كعدو ويسعى لإتباع مقدرة الغرب الهشة بالمقارنة مع ماكان عليه التفوق الحضاري في القديم لشرق أذاق بفتوحاته طعم خيراته المادية والمعنوية المتمثلة بثقافته المغتنية بروافد كثيرة أهمها منابعة الدينية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام [2] إذا فاللغرب عقدة نقص وغيرة من الشرق بسبب تفوقه الحضاري قديما، يعود إلى فتوحات الفرس وتفوق الكنعانيين والمصريين وصولا إلى الفتوحات الإسلامية، كما أن اعتبار الشرق مهبطا للديانات السماوية دعم حقده وكراهيته، فكانت حروبه المتواصلة واعتداءاته على الشرق لمحاولة خلق صورة القوي المسيطر على الضعيف التابع والقضاء على كل ما يميز الشرق أمام الغرب.

فكانت هذه النظرة متجدرة قوية حتى أنها لم تعترف بتقدم ميادين العلم العربي الإسلامي رغم أنها كانت تعيش مرحلة ظلامية في العصور الوسطى ويجب هنا " الفصل بين الرؤيتين رؤية العالم الشعبي ورؤية العالم المدرسي (scolastique) الأولى نفذت من الحروب الصليبية والثانية من المواجهة الإسلامية والمسيحية في اسبانيا واحدة انتشرت على المستوى الخيالي والأخرى على المستوى العقلاني "[3].فالعالم المدرسي كان يبث الصورة التي يريد إظهار الشرق بها في أذهان العالم الشعبي حتى وإن كانت خاطئة و مزيفة.

كما كان الرحالة يضفون على رحلاتهم عنصر التشويق عن طريق المبالغة في الوصف أو بتشويه الواقع لجذب القارئ الأوروبي ،كما أنه قد ظهرت رحلات وهمية "كتلك التي قام بها "كاري ماي " 1842-1912 لإبراز إيديولوجية تبشيرية غامضة في كتابه"عصر الصحراء" الذي صدر منه ستة أجزاء قبل أن تطأ قدميه أرض الشرق حيث كان لرحلاته تأثير واسع في صياغة الشرق الخيالية لأجيال متعاقبة" [4] نعم لقد احتلت هذه الرحلات حيزا واسعا في أذهان الغربيين فكان هذا الأدب يستجيب لحاجات الغرب لرسم الصورة التي يريد إظهار الآخر بها حسب المعطيات الجديدة على الساحة ،فالرحالة في حد ذاتهم كانوا منقسمين إلى رحالة ذاصفة خلقية إنسانية يريد إظهار الواقع كما هورحالة أخر تنعدم عنده هذه الصفات فيتعصب للصورة القديمة المعادية للشرق.

---

(1)المرجع السابق ،ص62.

(2) المرجع نفسه ،ص63.

(3) الحيدري : صورة الشرق في عيون الغرب ،ص25.

(4)المرجع السابق ،ص25.

كما أن المصالح التوسعية للغرب قد التقت مع تبرير السيطرة على الشرق باعتباره رمزا للتخلف يجب تحسينه وتطويره حسب المعايير الغربية، فخضعت الرحلات الاستكشافية لمنحى موجه يخدم الأنظمة التي ترعاها لبدأ عصر الاستعمار في القرن التاسع عشر الذي كان أبرز موظفيه من العلماء والمستشرقين الذين برز في أوصافهم وانطباعهم الجانب الذاتي الشخصي ولم يكونوا يخضعون للجانب العلمي والمنطقي فكانت المعطيات المفروضة هي التي تفرض عليهم مايدلون به من آراء [1].

إذا لقد كانت الأحكام المسبقة والاحتكام إلى ماهو سماعي يعد من العيوب التي شوهت صورة الآخر خاصة إذا كانت لاتمت بصلة للحقيقة، لذلك وجب أن يكون الوسطاء أكثر منطقية خاصة أن الوسطاء في بعض الأحيان قد تتعارض مصالحهم مع مصالح الأطراف الأخرى، كما أن الأخبار السماعية تكون مزورة في أغلب الأحيان لذلك وجب تحليلها بمنطقية وموضوعية للوصول إلى أحكام حيادية غير منحازة لجانب معين بالإضافة إلى النظرة الدونية من طرف الغرب للآخر واعتبارهم لأنفسهم الأفضل دائما مما يجعل أحكامهم تخضع دائما لمنطق الغالب يضاف إلى ذلك ربط لأحكام السالبة وتعميمها على كل مايرد من الشرق وكل مايتعلق به حتى وإن كان إيجابي [2] .

ونلاحظ أن اختلاف المنشأ الفكري والفترة التاريخية وكل مكونات فكر الباحث تساهم في اختلاف المواقف من باحث لآخر فلا يمكن أن نقارن بين مستشرق من القرن الثاني عشر ومستشرق من القرن الثامن عشر أو التاسع عشر فهناك ظروف ثقافية عامة تحيط بإنتاج كل مستشرق ورحالة وكذلك اختلاف الظروف الاجتماعية والسياسية لكل واحد فكل هذه العوامل تحدد تقدم أحدهم عن الآخر أو تخلفه كما تحدد صدق آراء أحدهم عن الآخر من زيفها.

إذا إن اختلاف صورة الشرق(الآخر) لدى الغرب يعود لأسباب متنوعة كما رأينا وهي تعود لزمن بعيد، ليس لزمن الصراع بين المسيحية والإسلام فقط، رغم أنها تعتبر من أهم مكونات هذه الصورة ومحدداتها، بل تتعلق بصور لحضارة نافست حضارتهم اليونانية والرومانية آنذاك وقد شبعت هذه الصورة أكثر فأكثر برغبة الغرب في التفوق على الآخر كما غذيت بالحقد على الآخر والنظر إليه نظرة دونية تحتية لا تعطيه أي قيمة إنسانية، كما كان للجانب الديني دور الكبير في تكوين التأثير على هذه الصورة " فالأصل الأول لهذه الأفكار هي التواريخ و الحوليات العدائية التي كتبها رجال الدين المهوسيين بالخوف من التوسع الإسلامي نحو العمق الأوروبي وقد عمد أمثال هؤلاء من الكتاب إلى تشوية العرب سادة الإسلام الذين ظهوروا امة وحدة الأول مرة في التاريخ مع الرسالة الإسلامية" [3] فاختلاف الأخر و مغايرته لمكونات الأنا يخلق نظرة غريبة غير منصفة تستمد أبعادها و مكوناتها من التعصب ومغايرة الآخر له و الاختلاف عن الأنا .

---

(1)نديم قاسم وجدي: أثر الاستشراق في الفكر المعاصر، ص-ص68،69.

(2)عقيل حسين عقيل: منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديد المتحدة ،ط1لبنان 2004،ص20.

(3)محمد الدعيني :الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2006 ،ص 39 .

كما أن المصالح التوسعية للغرب قد التقت مع تبرير السيطرة على الشرق باعتباره رمزا للتخلف يجب تحسينه وتطويره حسب المعايير الغربية، فخضعت الرحلات الاستكشافية لمنحى موجه يخدم الأنظمة التي ترعاها لبدأ عصر الاستعمار في القرن التاسع عشر الذي كان أبرز موظفيه من العلماء والمستشرقين الذين برز في أوصافهم وانطباعهم الجانب الذاتي الشخصي ولم يكونوا يخضعون للجانب العلمي والمنطقي فكانت المعطيات المفروضة هي التي تفرض عليهم مايدلون به من آراء [1].

إذا لقد كانت الأحكام المسبقة والاحتكام إلى ماهو سماعي يعد من العيوب التي شوهت صورة الآخر خاصة إذا كانت لاتمت بصلة للحقيقة، لذلك وجب أن يكون الوسطاء أكثر منطقية خاصة أن الوسطاء في بعض الأحيان قد تتعارض مصالحهم مع مصالح الأطراف الأخرى، كما أن الأخبار السماعية تكون مزورة في أغلب الأحيان لذلك وجب تحليلها بمنطقية وموضوعية للوصول إلى أحكام حيادية غير منحازة لجانب معين بالإضافة إلى النظرة الدونية من طرف الغرب للآخر واعتبارهم لأنفسهم الأفضل دائما مما يجعل أحكامهم تخضع دائما لمنطق الغالب يضاف إلى ذلك ربط لأحكام السالبة وتعميمها على كل مايرد من الشرق وكل مايتعلق به حتى وإن كان إيجابي [2].

ونلاحظ أن اختلاف المنشأ الفكري والفترة التاريخية وكل مكونات فكر الباحث تساهم في اختلاف المواقف من باحث لآخر فلا يمكن أن نقارن بين مستشرق من القرن الثاني عشر ومستشرق من القرن الثامن عشر أو التاسع عشر فهناك ظروف ثقافية عامة تحيط بإنتاج كل مستشرق ورحالة وكذلك اختلاف الظروف الاجتماعية والسياسية لكل واحد فكل هذه العوامل تحدد تقدم أحدهم عن الآخر أو تخلفه كما تحدد صدق آراء أحدهم عن الآخر من زيفها.

إذا إن اختلاف صورة الشرق(الآخر) لدى الغرب يعود لأسباب متنوعة كما رأينا وهي تعود لزمن بعيد، ليس لزمن الصراع بين المسيحية والإسلام فقط، رغم أنها تعتبر من أهم مكونات هذه الصورة ومحدداتها، بل تتعلق بصور لحضارة نافست حضارتهم اليونانية والرومانية آنذاك وقد شبعت هذه الصورة أكثر فأكثر برغبة الغرب في التفوق على الآخر كما غذيت بالحقد على الآخر والنظر إليه نظرة دونية تحتية لا تعطيه أي قيمة إنسانية، كما كان للجانب الديني دور الكبير في تكوين التأثير على هذه الصورة " فالأصل الأول لهذه الأفكار هي التواريخ و الحوليات العدائية التي كتبها رجال الدين المهوسيين بالخوف من التوسع الإسلامي نحو العمق الأوروبي وقد عمد أمثال هؤلاء من الكتاب إلى تشوية العرب سادة الإسلام الذين ظهوروا امة وحدة الأول مرة في التاريخ مع الرسالة الإسلامية" [3] فاختلاف الأخر و مغايرته لمكونات الأنا يخلق نظرة غريبة غير منصفة تستمد أبعادها و مكوناتها من التعصب ومغايرة الآخر له و الاختلاف عن الأنا .

---

(1)نديم قاسم وجدي: أثر الاستشراق في الفكر المعاصر، ص-ص69،68.

(2)عقيل حسين عقيل: منطق الحواربين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديد المتحدة ،ط1لبنان 2004،ص20.

(3)محمد الدعيني :الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2006 ،ص 39 .

3- تمظهر الآخر عند المستشرقين :

هناك تباين شديد بين أراء الفئات التي تقوم بالدراسات الاستشرقية فإن الآراء قد اختلفت حول مصداقية دراستهم و الأغراض التي سعوا لتحقيقها من وراء دراساتهم، فهناك من أيدهم و هناك من عارضهم و اعتبرهم أداة هدم للإسلام و قيمه وقيم الشرق كله و أداة سيطرة في يد الاستعمار و هناك من أشاد بما قاموا به و اعتبرهم صادقين في أعمالهم ويرى ادوارد سعيد في كتابه الاستشراق أنه لا يمكن أن يكون التمثيل الغربي للشرق على غير ماهو عليه الآن لأن الشروط التاريخية و الاقتصادية و الثقافية و الفكرية التي صنعته هي ما عليه وهو خاضع لحتمية تاريخية تحكمه، فكان تصوره استعماريا عرقيا متجدرا في القوة فلم يكن يمثل في وعي الغرب أنه الآخر فقط بل امتد إلى الشاذ والمنحرف و المجنون و المستضعف وهو عبارة عن اختراع غربي لا تحدده الطبيعية بل هو عبارة عن كيان مكون مشكل على أساس الدين و الثقافة و العرق، فهناك تمركز عرقي في التعامل مع الآخر.[1]

لقد تحدث الغرب عن الشرق لعقود و قرون فترجموا النصوص و فسروا الحضارات و الأديان و درسوا الثقافات و العقليات واعتبر المستشرق خبيرا في مجال دراسة الشرق ،فكانت دراساتهم تخضع في الغالب للعاطفة والتأويل وقد تكون عن طريق التمحيص والفهم المنطقي العلمي.

فهناك نظرتين للشرق و سكانه نظرة تشاؤمية و نظرة تفاؤلية أو نظرة متعصبة و نظرة منصفة، فالنظرة التشاؤمية لأعمال المستشرقين كان مرجعها الأهداف و الغايات التي سعوا إلى تحقيقها من دوافع دينية و اقتصادية و استعمارية و سياسية و بذلك فهم عملاء الاستعمار و أعداء للإسلام و العرب، يهدفو ن للتشكيك في صحة نبوة محمد صلى الله عليه و سلم و صحة القرآن الكريم و أصول الدين و اللغة و أن للشرقي صفات تتنافى مع الطبائع البشرية، فشوهوا صورة الشرق وأظهروه بمظهر لا يليق بمكانة حضارته العريقة .

أما الفريق التفاؤلي فقد قدموا خدمات جليلة للإسلام و الحضارة الشرقية و العربية فجمعوا التراث و حفظوه من الضياع و حققوا المخطوطات الإسلامية تحقيقا علميا و ابرزوا رقي و سمو الحضارة الشرقية و الإسلامية.[2] فقد صوروها تصويرا دقيقا واقعيا دون تحريف أو تزييف للحقائق فبرزت شخصية هذه الحضارة قوية متفوقة تماثل عراقتها و أهميتها التي عرفت بها منذ القديم بعيدا عن التعصب والسعي لخدمة مصالح الغرب وسعيه الدائم لتشويه صورة الشرق.

---

(1)ادوارد سعيد : الاستشراق ص-ص 6،5 ،تمهيد .

(2)ساسي سالم الحاج : نقد الخطاب الاستشراقي ، ص 25 .

أ-النظرة السلبية للآخر (التمظهر السلبي): لقد عرف الشرق الغرب وتعرف الشمال على الجنوب وتعلموا لغات بعضهم البعض وأجادوا الكتابة بلغة الآخر فتكونت بينهم الصداقات والمعارف والعداوات فهم لم يستطيعوا أن عن المنطقية والموضوعية وأبعد ما يكون عن الحيادية في حكمهم يتفقوا إلى يومنا هذا لأن آرائهم كانت بعيدة على الآخر ومراعاة الصواب في آرائهم وهذا ما حدث مع المستشرقين الذين قاموا بدراسة الحضارة الشرقية و العربية منذ القديم فهناك الكثير منهم من ابتعد عن المنطق والصواب فكانت كل إنتاجاته ومؤلفاته الفكرية ذات نظرة سلبية شكلت صورا خاطئة عن مجتمعاتنا بل إنها كانت غريبة لا تمت للواقع بصلة ، وتعتبر الرحلات أهم عامل لظهور الاهتمام بفكرة الآخر في البداية وكانت مجرد انطباعات أولية ومشاهدات لتتحول فيما بعد إلى دراسة منظمة تدرس الآخر وكل ما يتعلق به تاريخه،حضارته ، ثقافته. وكان للمستشرقين السبق في هذه الدراسات رغم أن جزء كبير منها ذا نظرة سلبية فقد كان للعصبية دور كبير في إطلاق هذه الأحكام.

فقد سجل كتاب شاتو بريان "رحلة من باريس إلى القدس 1810-1811 "تفاصيل رحلة قام بها المؤلف وقد شهدت صفحات كتابه على أنانيته النتنة فقد جاء محملا بإ فتراضات شخصية وأهداف مسطرة، فكان الشرق كما افترض أن يكون لاحقا هو كائن، فنظر لكتاب محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم على أنه لايحتوي على أي مبدأ للحضارة، كما أنه كتاب يقيد حرية الأفراد ولا يمقت الطغيان والاستبداد أما الإنسان الشرقي فهو إنسان متوحش.[1] لقد عارض شاتو بريان الإسلام وكان كارها له ولتعاليمه واعتبره خطرا على المسيحية فحكم شاتو بريان هو حكم مسبق على الدين الإسلامي الذي يمجد الحرية ويدعو إليها ويعارض الاستبداد والطغيان وهذه الأفكار المسبقة لاتصلح حتى لأن يحكم بها طبقا لمنهج البحث العلمي الصارم لتمسكه بها وتشويهه لكل الصور التي جاءت مخالفة لها حتى تتماشى وصحة ما ذهب إليه.[2] فرغم أنه زار البلاد العربية وتعرف على الإسلام و المسلمين إلا أنه بقي متمسكا بآرائه بل أنه ركز على سلبيات المجتمع الشرقي و العربي خاصة وقام بإبرازها حتى وإن كانت أشياء صغيرة إلا أنها أصبحت أمور أساسية عنده حكم بها على المجتمع.

لقد كان العرب خلال رحلة شاتو بريان منحطون متوحشون في الدين والسلوك وأن الحروب الصليبية لم تكن إعتداء بل هي حروب عادلة ومنصفة لأنها جاءت للقضاء على الإسلام عدو الحضارة الإنسانية وهذا الدين عبارة عن مذهب سياسي والنبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم مجرد قائد فاتح لا يعترف بنبوته مثل الإسكندر ونابليون والقرآن هو قصة من اختراعه لتنظيم الحياة الاجتماعية من جهة واعتباره كدين من جهة أخرى.[3]

من خلال هذه الأفكار نسي شاتو بريان تسامح الإسلام ودعوته للقضاء على الرق والظلم والاستبداد، فكانت أفكاره أرضية صلبة للصورة المشوهة للإسلام وسكان الشرق ما ساعد على نشر الأفكار التي تنادي بالاستعمار للشرق بسبب حالته المتدنية وضعف الذي عاشه الغرب في فترة الأتراك، فكان شاتو بريان يدمج بين الوهم الشخصي وبين الواقع وكانت رحلته ذات تأثير قوي على الاستشراق في وصف الشرق وخصائصه خاصة في نمو معرفة كا لاستشراق ذلك أن هذا النمو ليس تراكما أو إضافة بل هو عملية انتقائية تقوم فيها بالتكديس والحذف والإضافة وإعادة الترتيب كما يدخل فيه التأثر بالسابقين من الأسلاف .[4] وقد اعتبرت رحلته للشرق من أبرز الرحلات رغم أن العديد من الغربيين أنفسهم يشككون في صحة ما ذهب إليه و رغم أنه كان لرحلته تأثير كبير في الدعوة إلى الاستعمار الحديث للشرق.

(1) إدوارد سعيد : الإستشراق، ص186.

(2) ساسي سالم الحاج:نقد الخطاب اللاستشراقي ،ص 93.

(3) المرجع نفسه ،ص94.

(4) إدوارد سعيد : الاستشراق، ص190.

وهناك رحالة آخر أيضا قادته قدماه للشرق في التحقيق في صورة الأنا والذات وهو لامارتين الذي قام برحلته المشرقية عام 1833، تحقيقا لحلم الطفولة فقد ذهب للشرق وهو مشغول بالمسائل الدينية ليس كحاج كما ذهب شاتوبريان ولكن كرحالة وباحث حيث اهتم بالبنان أكثر من الدول الأخرى وحاول في كتابه رحلة إلى الشرق تعداد نقاط الالتقاء بين الإسلام والمسيحية وكانت أحكامه في هذا الموضوع أكثر منطقية من سابقيه واعتبرا لإسلام دين دولة خلافا للمسيحية التي تفصل بينهما، لكنه ألصف بالعقيدة الإسلامية صفة التوكل والقدرية ونفى عنها حرية الإرادة والتصريف عند الإنسان في خلق أفعاله سواء كانت أفعال طيبة أو شريرة ومنه استنتج أن المسلمين يقبلون أمور الحرب والسلام لأنها فرضت عليهم وكان السبب وراء هذا التركيز على توكل والقدرية القصد منه الوصول لأغراض سياسية وهي قبول المسلمين للتدخل الأوروبي في شؤونهم كأنه أمر محتوم أي مقدر وبالتالي لا يقومون برفضه بل يقبلونه على اعتبار أنه مقدر من الله [1]. أي أن المسلمين يرجعون كل شيء للقدر وبالتالي هم قوم متواكلون غير فعالين يمكن السيطرة عليهم بسهولة وإرجاع ذالك للقدر،وهي أمور أدعاها لامارتين ولاأساس لها من الصحة في معتقدات ومبادئ الدين الإسلامي.

لقد استغل هذا الأمر المستشرقون وقاموا بالترويج لهذه النقطة لكي يوهموا المسلمين بقبول الحكم الاستعمار الغربي ولا مارتين أكثرهم ترويجا لهذه الفكرة "وهكذا فإن روح التسامح والمحبة التي عبر عنها اتجاه المسلمين والإسلام لم تكن صادقة وكيف يمكننا أن نقبل بصحتها طالما كانت هذه الادعاءات دعوات ملحة ليقبل الشرق بتدخل الأوروبيون في شؤونه "[2] فكانت رؤيته للشرق أنه لايصلح إلا أن يكون تابعا للدول الأوروبية ليكرس لخدمتها ولأوروبا بالحق في حكمه والسيطرة عليه فهو لاقمية له بدونها ،فقد حاول استغلال ضعفه في العهد العثماني لدعوة فرنسا من أجل السيطرة عليه و دعوة سكانه لقبول ذلك باعتباره قضاء وقدر.

ولم يسلم الدين الإسلامي وحضارة المسلمين وتاريخهم من التجريح والانتقادات المستمرة فقد كتب أبراهام جيجر في مقالة هامة حصل فيها على جائزة أوروبية كان عنوانها" ماذا أخد محمد صلى الله عليه وسلم من اليهودية ؟"يرى فيها أن محمد استمدها بالكلية من اليهودية والمسحية ،كما أنكروا فضل الحضارة الإسلامية وعلى أوروبا والحضارة الإنسانية حيث يرى فيلهاوز يوليوس أحد أهم مستشرقي المدرسة الألمانية أنه بإجراء مقارنة بين الحضارة الإسلامية وحضارة الغرب فإننا نجد أنه لا فضل لحضارة الإسلام على أوروبا وأن الخلفاء المسلمين لا يمكن أن يقارن بينهم وبين الحكام الغربيين المسيحيين [3].فقد نفوا دور العلماء العرب القدامى في حفظ تراث الشرق عامة وتراث اليونان، فهناك من المستشرقين "الذين ينكرون هذا الدور الخطير الذي لعبه العرب المسلمون في هذا المجال و يحاولون أن يقللوا من قيمة ترجماتهم للروائع الشرقية والإغريقية على حد سواء ويرمونهم بعدم الدقة حينا بعدم فهم للنصوص التي يترجمنها أحيانا أخرى ...ولكن مهما يكن الأمور فإن ترجمات العرب لذلك التراث وتحقيقهم إياه تدل على الإخلاص وأمانة وصدق لا نظير لهما جميعا في الأعصر القديمة والحديثة معا لأنهم لم يحاولوا القيام بالتحريف أو الزيف كما قام بذلك بعض علماء الاستشراق قد يما وحديثا عند ترجمتهم للقرآن وغيره" [4] .فرغم ما قام به المسلمون خاصة في الحفاظ على التراث الإنساني القديم إلا أنهم لم يعترفوا بذلك رغم صدق وأمانة الباحثين العرب الذين كانوا على عكسهم حين قاموا بدراسة التراث العربي والإسلامي وقاموا بتشويهه و تحريفه وإلصاق الأكاذيب به.

(1)سياسي سالم الحاج :نقد الخطاب الاستشراقي ،ص97.

(2)المرجع نفسه، ص98.

(3) النبراوي: الاستشراق ص-ص184،185.

(4)أحمد سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق ،ص 166.

ب- التمظهرالإيجابي (النظرة الإيجابية):

نظرة الغرب بإيجابية للشرق أو الموضوعية في الدراسات التاريخية والإسلامية والعربية والشرقية بصفة عامة وغيرها مطلب صعب المنال والموضوعية المطلقة غير ممكنة التحقيق، لكن الموضوعية التي نقصدها ونبحث عنها في إنتاجات هؤلاء المستشرقين الموضوعيين أنهم حاولوا أن يأخذوا المعلومات الصحيحة من المصادر الأصلية وأن يستخدموا المنطق في اعتماد تلك المعلومات بنوع من الحياد والموضوعية وإن كانت هناك انتماءات دينية وفكرية وسياسية واجتماعية أثرت فيما كتبوا من دراسات وبحوث لكن بصورة طفيفة .

لقد كان علماء الاستشراق يتبارون في عنايتهم بالتراث العربي فأقبلوا عليه بجهودهم الجبارة خاصة بعد أن ظهرت المطبعة العربية واشتدت عناية الاستشراق بهذا التراث وأخذت تخرج كل مايلقى إليها من كتب في اللغة العربية وآدابها في التاريخ الإسلامي، فكان طبع الكتب والتعليق عليها وتحقيقها لتسيير لاستفادة منها كما قاموا بجهود جبارة تجمع المؤلفات العربية في العلوم والآداب والفنون جميعا حتى اكتظت مكتباتهم العامة والخاصة، وكادوا بدراستهم العربية والإسلامية أن يصلوا إلى حقيقة الإسلام وفلسفة شريعته فقد عالجوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا[1] "وقد جاءت عناية الاستشراق في هذا المجال بنتائج ضخمة يجب تقديرها حيث تعرف العرب لهذا التراث الضخم ودوره الذي لعبه في صقل عقليته وإنقاذها من سيطرة الجهل والظلام وأقامت أوروبا نهضتها العلمية على على أسسه ودعائمه وبطلب كل المزاعم والتهم التي كانوا يوجهونها إلى العرب للتقليل من شأنهم وتبرير استعمارهم"[2] .

وقد بذلت مجالات كثيرة لتغيير النظرة السلبية عن الإسلام والمسلمين من طرف بعض الرحالة والمستشرقين "رغم تلك المحاولات شبه النيرة التي بذلت لتصحيح الصورة السوداوية عن الإسلام كتلك التي بدأها فلهم فون مالميسيري سنة 1120 وهو أول أوروبي أكد أن المسلمين لا يعبدون محمد بل يعتبرونه نبيا وصاحب رسالة ،رغم ان رأيه لم يلقى صدى يذكر أمام الرأي المعاكس،كما أن هناك رفولف الذي قام برحلة الحج سنة 1753 ونشرها في كتاب وقف فيه موقفا غير متعصب وغير عدائي اتجاه المسلمين هذا الموقف الدي كان سببا في طرده من عمله[3] وفي منتصف القرن الثامن عشر كتب العالم الإسباني ستيزن"إن رغبتي في زيارة العالم العربي وإفريقيا قد ازدادت أكثر فأكثر وقد وجدت الشرقيين بشر مثلنا، ساخر من تلك الصورة المشوهة محاولا تغييرالذهنية التي سادت في أوروبا والتي اعتبرت الشرقيين برابرة ومتوحشين"[4] .

إن لهؤلاء الرحالة فضل كبير في محاولة تغيير النظرة السائدة لدى الغرب عن العالم الشرقيبما قدموه ومن المستشرقين الذين كتبوا بموضوعية غوستاف لوبون صاحب كتاب" حضارة العرب" وكان له سمعة علمية طيبة حيث تناول في كتابة تاريخ الأمة العربية وكل من انطوى تحت حكمها من الشعوب وهو يرى أن العرب هم من مدنوا أوروبا حيث جمع عناصر هذه الحضارة وتأثيرها.[5]

---

(1)أحمد سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق ،ص160.

(2)المرجع نفسه ،ص-ص63،64.

(3)ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي ص-ص62،63،64.

. (4)الحيدري :صورة الشرق في عيون الغرب ،ص51،نقلا عن ساسي الحاج.

(5)محمود الأرناؤوط : رحلة في كتاب حضارة الغرب لغوستاف لوبون ،مجلة الفيصل للعدد 51 ،جويلية ،1951ص84.

لقد استخدم هذا المستشرق طريقة التحليل العلمي البعيد عن التعصب مبتعدا عن أوهام الأوروبيين التقليدية عن العرب والمسلمين وهو ينظر إلى الإنسانية بعين بعيدة عن العنصرية حيث آمن لوبون بالدور الأصيل للمسلمين في الحضارة الإنسانية في المجالات العلمية والأدبية كما قال أن الإسلام لم ينشر بالنار والحديد بل انتشر بالتسامح الذي امتاز به المسلمون أمام أهل الذمة(1).

فكانت نظرته إذا نظرة موضوعية علمية تعترف بفضل العرب وتعرف بتفوقهم ولا ننسى كذلك المستشرق كايتاني المؤرخ الموهوب الذي قال عنه الشيخ محمد الغزالي أنه أنصف الإسلام حيث رسم صورة مشرفة للرسول صلى الله عليه وسلم كما أدان الاستعمار الأوروبي للبلدان الشرقية ووقف مع ليبيا أثناء الاحتلال الإيطالي(2) و قد سار في هذا المنهج كذلك العديد من المستشرقين أمثال يوهان فيك ومنتجمري وات اللذان اتسما بالموضوعية في كتابتهما.

لقد أجاد هؤلاء المستشرقين اللغة العربية و عاشوا في الأجواء الإسلامية على الأراضي العربية "ولهذا قد أصبح جليا أن الاستشراق عنى عناية كبرى بكل ما هو شرقي وإسلامي و عربي على حدة ...فألف آلافا مؤلفة من الكتب وأصدر عشرات من المجلات ونشر عشرات الآلاف من المقالات دارسا في كل منها قضايا الإسلام و دور العرب ومنزلتهم ومعضلات القرآن و حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرها من المسائل العلمية والفلسفية و التاريخية و الدينية و السياسية، كما قام بترجمة عدد هائل من الكتب العربية إلى اللغات المختلفة وعني بتحقيقها و كشف عن مخطوطاتها ونظم فهارسها "(3).كل هذه الجهود التي بذلها المستشرقون أعطت صورة جيدة عن العرب و المسلمين عند الآخر واستطاعت أن تغير و لو قليلا تلك النظرة الدونية.

أما عناية بالأدب العربي فقد اهتم بكل ما يتعلق به وكانت عنايته به أشد أكثر وأوسع انتشارا أصعب دراسة لأنه حاول فهم الشخصية العربية و الإحاطة بها من كل جوانبها و هذا يدل على مدى أهمية دراسته الفكر العربي عامة والأدب العربي خاصة، فقد ركز جهده وعنايته على الأدب العربي القديم والحديث واستخرجوا من خزائنه كنوزه المدفونة فسحرت لدى نشرها عقول أبناء الشرق والغرب ومما لاشك فيه أن هذه العناية قد ساهمت في توجيه العلوم الأدبية وأبرز من قام بدراسة الأدب العربي وأعطى عنه نظرة نستطيع أن نقول عنها أنها موضوعية حيادية حاولت إصدار أحكام علمية دون الرجوع إلى المرجعيات السابقة ريجيس بلاشير في كتابه" تاريخ الأدب العربي" والذي سيكون نموذجا للدراسة وتحليل بعض النماذج والمواضيع التي وردت فيه في الفصل التالي .

---

(1)البنراوي:الاستشراق، ص196.

(2)المرجع نفسه ،ص-ص197،198.

(3)أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق ،ص172.

الفصل الثالث: الاستشراق والأدب العربي

1-من هو ريجيس بلاشير؟:

علم من أعلام الاستشراق الفرنسي ولد في مون روج في ضواحي باريس سنة 1900، تلقى علومه الثانوية في مدينة الدار البيضاء و تعلم العربية في كلية الآداب بالجزائرو أجيز منها سنة 1922 و عين أستاذ لها في معهد مولاي يوسف بالرباط و لما نال شهادة الامتياز في التعليم سنة 1924 انتدب مديرا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط(1924-1935).[1]

ثم عين مدرسا للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة 1935 و نال شهادة الدكتوراه برسالة عن الشاعر المتنبي سنة 1936 . عين سنة 1938 أستاذا في جامعة السربون [2] ،ثم مديرا لمدرسة الدراسات العليا العالمية 1942 و مشرفا على مجلة المعرفة التي ظهرت في باريس باللغتين العربية و الفرنسية[3].

توفي عام 1973 له دراسات رائعة في الأدب و اللغة العربية و الفكر الإسلامية، تخرج على يديه الكثير من الطلاب الشرقيين و الغربيين أشهرهم تلميذه أندريه ميكيل وقد أكبر فيه طلابه العلم الغرير و الروح العلمية المجردة و التحقيق الواسع في أصول التراث العربي[4].

آثاره: دراسات عن العرب في أشهر المجلات الاستشراقية كمجلة الدراسات الإسلامية و هسبيريس وحوليات معهد الدراسات الشرقية منها ما نشره بمعاونة رينو: فهرس المخطوطات المستجدة في المكتبة العامة المحمية المغرب، و له وحده: مصدر التاريخ العلوم عند العرب(هسبيريس العدد8، 1928)، كما عنى بالشاعر العربي الكبير أبو الطيب المتنبي عناية شديدة فكتب عنه:"المتنبي الشاعر العربي الإسلامي"(مجلة الدراسات الإسلامية العدد 3،1929) و" شاعر عربي في القرن الرابع هجري – العاشرميلادي:المتنبي" وقد تناول فيه الشاعر ونقاده: إبراهيم اليازجي وجرجي زيدان وأحمد الإسكندري وزكي مبارك وشوقي و حافظ إبراهيم وكامل الكيلاني وأحمد ضيف وعبد القادر المازني ومحمد أسمير وفؤاد أفراح السيتاني و أحمد حسن الزيات وعباس محمود العقاد وطه حسين وشفيق جبري وغيرهم بالتحقيق والنقد والتعليق فجاء من خير الكتب التي تعرض للشاعر(باريس 1935)وله أيضا كتاب أبو الطيب المتنبي بحث أدبي "باريس 1936 "ودراسة عن المتنبي ثم سعيد البغدادي في إسبانيا (مجلةهسبيريس عدد10 ،1923) و"مقتبسات عن أشهر الجغرافيين العرب في العصر الوسيط" (باريس 1932) و "فاس في كتب الجغرافيين العرب في العصر الوسيط "(هسبيريس عدد18،1934) ، وترجمة "طبقات الأمم لصاعد الأندلسي والأمير الأموي الوليد الثاني "بمعاونة جود فروا ديموبين، المعهد الفرنسي بالقاهرة(1935،1945) وا"الوزيرالشاعر ابن زمرك "(حوليات معهد الدراسات الشرقيةعدد2،1936)

(1) نجيب العقيقي: المستشرقون ج$_1$،دار المعارف،ط3 ،مصر 1964،ص316.

(2) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ج$_1$،ت: إبراهيم الكيلاني الدار التونسية للنشر تونس 1986،ص06.

(3) المرجع السابق ،ص316.

(4) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق ،ص331.

وبمعاونة جود فروا ديموبين ألف كتاب " قواعد اللغة العربية الفصحى" وهو من أجود الكتب في النحو(باريس 1937)وله" مجمل شاعرية العرب" (المجلة العلمية،1938) وأهم مواضيع شعر الغزل على عهد الأمويين بدمشق وبمساعدة سوفاجيه نشر" قواعد نشر وترجمة النصوص العربية' (باريس، 1945) وله أيضا رسالة الغفران للمعري (مجلة الدراسات الإسلامية 1941،1946) و"علماء العراق في القرنين الثاني والثالث للهجرة" وترجمة جديدة للقرآن في ثلاثة أجزاء (باريس، 1948م) ومعضلة محمد (1935) وبمعاونة ماري سيكالدي أدريان ألف "مختارات من العربية الفصحى" وله" أدب الأمثال عند العرب "(أرابيكا عدد 1. 1945) وبمعاونة درا مون ألف "الجغرافيون العرب في العصر الوسيط"(باريس، 1957) وكتاب" تاريخ الأدب العربي" (باريس1952) وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم الكيلاني(1) وهو المؤلف الذي يهمنا من بين كل هذه الآثار التي تركها المؤلف وسيكون نموذج بحثنا هذا إن شاء الله .

نعم لقد كان بلاشير أحد المستشرقين الفرنسيين الذين قضوا فترة طويلة من فترات تكوينهم الثقافي والوجداني في شمال إفريقيا فقد رحل إلى المغرب وهو في الخامسة عشر وظل النشاط العلمي لبلاشير مزدهر حتى وفاته في الثالثة والسبعين بالرغم من أنه أصيب بالعمى في العقدين الأخيرين من عمره لكنه ظل محافظا على صلته الحية بالعالم العربي فقد كان عضوا لمجمع اللغة العربية في القاهرة ودمشق إلى جانب عضويته بأكاديمية الفنون والآداب في فرنسا(2) .

اهتم بلاشير إذا بالدراسات الأدبية كما اهتم بالدراسات القرآنية والدراسات المحمدية فقدم دراسات متعددة في هذه المجالات وفي كل ما له علاقة بالتراث العربي .

---

(1)نجيب العقيقي: المستشرقون ص- ص316-317-318 بتصرف.

(2)أحمد درويش: تاريخ الاستشراق الفرنسي والأدب العربي ، دار غريب للنشر والتوزيع ،القاهرة،2004،ص27.

2-التعريف بالنموذج: تاريخ الأدب العربي لريجيس بلاشير.

تعتبر الجهود الفردية للاستشراق الفرنسي لخدمة الثقافة العربية في دراسة التراث العربي الإسلامي ودراسة المجتمعات العربية كثيرة ومتنوعة وقد ترجم جانب منها إلى العربية، فهناك دراسة سيديو عن خلاصة تاريخ العرب ودراسة لوبون غوستاف عن حضارة العرب ودراسة جاستون فيث الذي أقام في مصر نحو ربع قرن وكتب بحثا عن مصرالعربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ودراسة ليفي بروفسينال تاريخ إسبانيا الإسلامية وماسينون آلام الحلاج وأندريه ميكيل ومعظمهم عاش لفترة قد تطول أوتقصر في هذا البلد العربي أوذاك، بل إن بعضهم ولد هناك أمثال: شارل بيلا أوجاك بيرك فالأول ولد في المغرب والثاني ولد في الجزائر وهناك من اعتنق الإسلام من شدة حبه لتراثه الروحي والفكري مثل: فانسان منصور مونتيل .

لكن الذي يهمنا أكثر من هؤلاء المستشرقين هو ريجيس بلاشير الذي وهب حياته للدراسة الاستشراقية أهمها دراسة عن الأدب العربي حيث جاءت في كتاب من جزءين عنوانه تاريخ الأدب العربي. يعرض بلاشير في كتابه هذا الذي جاء في تسعمائة و خمسة و ثمانون صفحة موزعة على ثلاثة أقسام، كل قسم يتكون من ستة فصول لقضايا الأدب العربي و يعطي خلاصة ثقافته فيه بوضوح تام و صراحة كبيرة و يزيد على ذلك أنه استوعب الدراسات السابقة التي قام بها المستشرقون قبله فهو يعارضهم تارة و يصحح بعض مساراتهم في الأدب العربي تارة أخرى وهذا ما لم نره عند غيره من المستشرقين إذ " يتميز بالتفاني و الإخلاص و الحب العميق للشرق و ثراته".[1]

و يقع الكتاب في جزءين و الكتاب تجربة جديدة لبلاشير تناول فيه اتجاهه الذي سار عليه في تناوله للمشكلات الأدبية و مقدار فهمه للأدباء و النقاد و الشعراء العرب الذين أخرجوا لنا هذا التراث الضخم الذي تعتز به الأمة العربية على مر الزمن، و يقع الجزء الأول منه في قسمين و عدة فصول، يشير بلاشير في القسم الأول إلى عدة موضوعات هامة قبل أن يتناول الشعر العربي و هي: صفات المحيط العربي و تشكل المجموعات أو القبائل العربية و هجرات قبائل الجزيرة ثم تحدث عن التيارات الخارجية التي أثرت في الجزيرة العربية و تكلم عن جيران العرب في الشمال و الشرق و منشأ الكتابة العربية كذلك . وبعدئذ تناول اللهجة العربية و أشار إلى نظرية المسلمين عن نشوء الكتابة العربية الفصحى و أما السبب الذي تناول بلاشير من أجله هذه الموضوعات في رأينا هو أنه سيبحث عن الشعر العربي و هيكله وبنيته وبيئته والقبائل و الرواة والرواية وعادات العرب وأديانها واتجاهاتها وسيربط كل هذا بالحديث عن الشعر ونشأته ومصادره وكل ما يتعلق به فكتاب بلاشير عن الأدب العربي في العصر الجاهلي قد تعرض فيه

(1)نجم الدين غالب: شخصيات من الشرق و الغرب، دار الكتاب اللبناني ،بيروت 1969 ،ص 122،نقلا عن أحمد سما بلوفتش.

أولا: بيئة الشعر الجاهلي و القبائل العربية وبلاد العرب ونشأة الكتابة وغيرها مع إلقاء نظرة على اللهجات العربية ونشوء العربية الفصحى .... واعتبر هذا مقدمة لكلامه عن الشعر الجاهلي من مختلف جوانبه العقلية و التاريخية و تكلم عن روايته و جمعه أشهر قصائده و أشهر رجاله وكثرة النصوص فيه و كيف ننظر إليها وأثر الانتحال عليها.

ثانيا: يعرض لفكرة الانتحال تاريخيا عند المستشرقين وكيف عالجوها وطريقها الصحيح المقبول كما يعرض أهم الشعراء البدو وموضوعات الشعر وأساليبه[1].

أما الجزء الثاني من الكتاب فيحتوي على قسم وستة فصول وأهم المواضيع التي يتناولها هذا الجزء، النثر الأدبي و كيف ظهر وعلاقته بالنثر الخطابي وعلاقة النثر الأدبي بالفن القصصي، فتناول الخرافة و الأساطير والحكمة والأمثال والخطابة وكيف كانت البذور لتكون هذا النثر الأدبي.

وقد فعل بلاشير كل هذا في "منهجية متكاملة و موضوعية تامة و يتضح مدى ما وفق فيه أنه لا يكتفي في أحيان كثيرة بسرد آراء المؤرخين في كل اتجاه بل نرى في أحيان كثيرة رأيه الواضح مؤيدا بالأدلة و البراهين و يقولها عن دراسة ودراية لا عن تعصب و يبدو جليا أنه ترك الدين جانبا فجعله لا يتدخل في الأمور الأدبية و لهذا لا نرى في كتابه أي مطعن في الإسلام ولم يجار في هذا أكثر المستشرقين الذين يجعلون الدين هدفا في ذاته في دراساتهم الكبيرة و الصغيرة ونحن من جانبنا نحمد لبلاشيرهذا الاتجاه في كتابه البالغ الأهمية و جهده فيه واضح لا يحتاج إلى تنويه و فيه من الآراء ما يدل على فكره الثاقب القدير.[2] هذا هو النموذج الذي كان مصدرا لبحثي هذا فقد اخترت منه بعض المواضيع التي تناولها بلاشير في فصول متفرقة،حيث سنعرف رأيه في اللغة العربية ورأيه في الأدب العربي القديم سواء كان شعرا أو نثرا مع العلم أنه تناول مواضيع كثيرة تتعلق بتاريخ الأدب العربي من دواوين وشعراء وشعر ونثر.

---

(1)أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق،ص336.

(2)المرجع نفسه، ص336.

3- رأيه في اللغة العربية:

أ- اتخاذ لهجة سائدة لغة أدبية:

في الفصل الثالث لكتاب بلاشير" تاريخ الأدب العربي" والذي عنونه ب: "اتخاذ لهجة عربية لغة أدبية "يقوم بعرض نظرية نشوء اللغة و تطورها ثم يعرض للسان الشعري العربي الفصيح ونشوء العربية الفصحى. ففي نظرية نشوء اللغة يقول :" تتجزأ لغة من اللغات عندما تنتشر على مقياس واسع إلى لهجات يعظم تمييزها على قدر وهن الصلات التي تربط بين المجموعات البشرية ذات الأصل الواحد التي تتكلم تلك اللغة أو على قدر إيغال التفكك اللغوي في القدم. فإذا أعدت لهجة من اللهجات لسبب ما لتكون لغة حضارة فإن بقية اللغات لا تختفي من الوجود للسبب ذاته، بل يستقر محيطها ويصبح استعمالها مقصورا على أفراد الحياة العادية العاجلة العملية. لتصبح لغة الحضارة لغة اصطناعية فاقدة بذلك صلتها مع الحياة لأنها صارت أداة أقلية محدودة تعتمد عليها للتعبير عن الأفكار والمدركات البعيدة عن مستوى الشعب وعلى قدر انتشار تلك اللغة بين طبقات المجتمع استطاعت أن تحافظ على التحامها مع الواقع واستعدادها للتكيف و التعبير عن الفعاليات الإنسانية كافة وتعد الفرنسية والإيطالية مثالا نموذجيا على لهجتين إقليميتين صارتا لغتي حضارتين مع الاحتفاظ دوما بحيويتهما[1]"،فاللغة إذا تتحول من لغة رسمية معتمدة تحيط ها بمجموعة من اللهجات، هذه اللهجات تتطور على حسب اتساع الرقعة الجغرافية التي تغطيها تلك اللغة وعلى حسب مرور الزمن لتنمو وتتطور هي الأخرى إلى لغة رسمية بعد أن أصبحت ملتحمة مع الواقع ومستعدة للتعبير عن الأفكار ومختلف فعاليات الحياة الإنسانية، و اللغة العربية كغيرها من اللغات البشرية تولدت من لهجة استطاعت أن تصل إلى مرتبة اللغة الأدبية هذه اللغة التي أصبحت لغة علم و لغة حيوية متجددة واكبت كل التطورات الجديدة مما سمح لها بالحفاظ على وجودها ومكانتها.

وقد جمعت اللغة العربية و ثبتت قواعدها من طرف النحويين اللغويين المسلمين في القرن الثامن لميلاد و أثناء ذلك ظهر الاختلاف الموجود في لغة البدو في الجزيرة العربية خاصة في الأصوات ومخارج الحروف والتصريف وتركيب الجمل والمفردات، كما جمعت في القرن العاشر القراءات في كتب خاصة وتفاسير أهمها كتاب "عقد اللآلىء"لأبي حيان و هذه القراءات لا تختلف فيما بينها إلا في الأصوات ومخارج الحروف والتصريف وتعتبر وثائق هامة لدراسة اللهجات العربية لكنها غير كافية كما يشير للحديث النبوي الشريف لكنه يقول بأنه شابه الكثير من التحريف و أنه نقل بالمعنى ولم ينقل كما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتبنى الشعر الجاهلي الذي تؤلف نصوصه وثيقة أساسية لدراسة اللغة على الرغم مما أصابه من انتحال ،هذا بالإضافة للمسلات التي اكتشفت في حران و الفسفاط والتي تحوي مميزات اللغة العربية الفصحى رغم قصر هذه النصوص التي لا يمكنها أن تعطينا استنتاجات كافية تعبر لنا عن حالة اللغة آنذاك[2].

---

(1) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص 82.

(2)المصدر نفسه: ص-ص83 ،84.

ويشير إلى نصوص أطول من المسلات وهي نصوص المعاهدات التي عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام والكتب التي بعث بها إلى القبائل والأمراء والملوك، وهي صكوك نظم بها الرسول الكريم أحوال المسلمين واليهود أثناء وصوله للمدينة المنورة رغم التصحيف البسيط الذي طرأ عليها أثناء تثبيتها النهائي فهي تعد وثائق هامة ندرس من خلالها اللغة العربية .

أما أهم نص يشير إليه بلاشيرويعتبره النص الأساسي الذي يرجع إليه في تعريف أصول اللغة العربية الفصحى فهو القرآن الكريم المنزه عن كل تحريف وتشويه(1).

لقد ذكر بلاشير مصادر هامة يعتمد عليها لدراسة اللغة العربية أهمها : الكتب النحوية وكتب القراءات السبع والحديث النبوي والشعر الجاهلي والآثارونصوص المعاهدات والقرآن الكريم.

لكنه يشكك في بعض هذه المصادر حيث يعتبر الكتب النحوية والقراءات غير كافية لدراسة اللغة العربية من كل جوانبها وهو على حق في هذا، فهي غير ملمة بكل جوانب اللغة لكن ما تحويه ذو أهمية كبرى ويعتبر من كنوز اللغة العربية التي يعتمد عليها ويرجع إليها، لكن رغم ذلك يجب العودة إلى مصادر أخرى. أما الحديث الشريف فقد شكك في أنه جمع بالرواية أي أنه قد روي بالمعنى وليس كما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا حسب ما قاله بعض المسلمين أن كثيرا منه وضع ودس ونسب للرسول صلى الله عليه وسلم وهذا أمر معروف، فهناك الصحيح والضعيف أما صحيح البخاري ومسلم فاسمهما يدل عليهما فكل ما ورد فيهما من أحاديث لم يكذب واعتبره العلماء صحيحا وبالتالي لغتهما لغة سليمة يمكن اعتمادها في دراسة اللغة العربية أما بالنسبة للمسلات الأثرية التي تحتوي على مقاطع لغوية فهي غير كافية لتبيين حالة اللغة آنذاك.

أما القرآن الكريم فقد اعتبره بلاشير الأصل الأول الذي يعتمد عليه ،كيف لاوقد نزل على سبع أحرف ولم يشبه لا التحريف ولا النحل ولا التشويه ،فقد ارتفعت اللغة العربية بفضله من مصاف لهجة سائدة في الجزيرة العربية إلى لغة دينية حاملة رسالة الله الجديدة إلى مختلف المناطق خارج الجزيرة بعد أن كانت مقصورة على المجال الشعري خاصة. وبجمع كل هذه المصادر يمكن أن نحصل على مصدر كامل يغطي كل الجوانب لدراسة هذه اللغة وتثبيت قواعدها ووضع لغة تكون العمود اللغوي الذي يعتمد عليه.

---

(1)المصدر السابق، ص85 .

ب-أصل اللغة العربية و نشوءها:

بعد أن عرض بلاشير آراء العلماء المسلمين في أصل نشوء اللغة العربية الفصحى اتجه إلى مناقشة نظريتهم تلك التي تقول: " بتولد العربية الفصحى من اللهجة المكية باعتبارها عمودا لغويا[1] أي أن كل اللهجات العربية لمختلف القبائل قد انبثقت من لغة أهل مكة على اعتبار أن القرآن الكريم قد أوحي إلى نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم والذي هو سليل قبيلة قريش المكية باللغة العربية القرشية، لذلك كان من الواجب اعتبار هذه اللغة هي النموذج الذي يحتذي به و هو رأي سانده العلماء المسلمون وكانت هذه النظرية مقبولة دون جدال[2].

كما يشير بلاشير قبل ذلك إلى أن معظم العلماء العرب صرحوا أنهم عندما أخذوا كلمات اللغة العربية الفصحى استثنوا بعض المناطق التي ظنوا أنها تعرضت لبعض التأثيرات الخارجية" ويقضي المبدأ الذي ظهر في بدء القرن الثامن بوجود مقياس لغوي وشكل خالص وكامل للغة العربية ينقضان تعدد اللهجات التي هي فساد لتلك اللغة المثالية ويختلف هذا الفساد في شدته تبعا للمؤثرات الأجنبية التي خضعت لها كل لغة"[3]

فلم يأخذوا عن لغة الحضر ولا سكان البراري الساكنين بأطراف البلاد المجاورة للأمم الأخرى ولا من قبيلة لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وإياد لمجاورتهم أهل الشام حسب ما ورد في كتاب" المزهر" للسيوطي وهنا يتساءل بلاشير إذا لم تأخذ العربية من هذه القبائل على اعتبار فساد لغتها واعتبار لغة قريش لغة نموذجية كيف بقيت لغة قريش لغة سلمية؟ بمعزل عن المؤثرات الخارجية وهي مركز للحج السنوي لكل العرب ومدينة تجارية يفد إليها من كل صوب وحدب، كما أن القرآن الكريم مليء بالألفاظ الأجنبية، فمن أين جاءت هذه الألفاظ وهي ليست من لغة أهل قريش " وفي القرآن الكريم ألفاظ أجنبية عديدة... فقد كانت العناصر التي شكلت قوام سكان مكة على غاية من المزج والاختلاط".[4]

فكل هذه العوامل حسب رأيه تدعو للشك في نقاوة لغة قريش وأنه ليس هناك لغة سلمية تماما. ويضيف أن هناك من يبرر ذلك بسيطرة مكة الدينية والفكرية على قبائل المجال العربي لكنه يعود ويتساءل عن تفوق اللغة القرشية على باقي اللغات قبل ظهور القرآن الكريم وأنه ليس هناك دليل على ذلك وأن تأثيرها كان في مناطق محدودة مثل الطائف وتباله ونجران.[5]

إذا أردنا الرد على رأي بلاشير نقول صحيح أن القرآن احتوى على كلمات أجنبية وأنه من الصعب إنكار اللهجات العربية الأخرى اعتبار لغة قريش الأصل فقط، فالقرآن الكريم نزل بسبع حروف لكن قول الرسول صلى الله عليه و سلم " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" دليل على أهمية ومنزلة هذه اللغة ومكانتها.

---

(1)ريجيش بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص 91.

(2)المصدر نفسه ،ص90.

(3)المصدر نفسه ،ص 86.

(4)المصدر نفسه ،ص 91.

(5)المصدر نفسه ،ص 91.

فقد كرم هذه اللغة القرآن كما كرمها الرسول صلى الله عليه وسلم رغم أن أهل قريش أنفسهم كانوا يقصدون البوادي المجاورة ويرسلون إليها أطفالهم لتعلم فصاحة اللسان فالرسول صلى الله عليه وسلم نفسه قد فعل ذلك ومن هنا نجد ما يؤكد بعض الشيء جانبا من تساؤل بلاشير حول دور المؤثرات الأجنبية في هذه اللغة.

ثم ينتقل للحديث عن علاقة اللسان الشعري بنشوء اللغة العربية الفصحى، غير أنه بمسايرة النحويين المسلمين رأيهم فهذه اللغة مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن الكريم معا مع الإشارة إلى أن القرآن الكريم يعتمد على لغة الشعر الجاهلي وليس على اللهجة المكية. واللغة العربية لها مساحة جغرافية واسعة ولا تزال في الحقيقة مجهولة المصدر الأول الذي نشأت منه ويطرح عدة افتراضات لتكون هذه اللغة منها: أن تكون عبارة عن لغة دارجة مركبة تولدت بتأثير التجارة و إتحاد اللهجات أو أن لهجة قبيلة من القبائل من عصور ما قبل التاريخ وبتأثير ظروف سياسية قد أصبحت لغة الشعر المعتمدة، لكنه يفند فكرة تكون لغة اصطناعية ويؤيد فكرة رفع لهجة محلية إلى مصاف لغة أدبية معتمدة ويستدل بذلك باللغتين الفرنسية والإيطالية التي كانت عبارة عن لهجات ثم أصبحت لغات معتمدة وفي هذا يقول:" ولنشر كل شيء إلى أن خلق فرضية لغة اصطناعية عن سابق تصميم غير مقبولة في حين أن وجود لهجة محلية رفعت إلى منزلة لغة أدبية مؤيد بوقائع مماثلة في اللغتين الفرنسية والإيطالية[1].

فاللغة العربية التي نقلت من طرف الرواة في القرن الثامن والتاسع لم تكن لغة خاصة بمنطقة معينة إنما هي لغة وسطى حملت خصائص مختلف اللهجات المنتشرة في شبه الجزيرة وهي لغة أخذت من اللهجات وأضيف إليها اللسان الشعري لتستعمل للتعبير عن أنماط تفكير مختلفة[2] ،فهناك إذا لغة عليا تعتبر المصدر والمرجع الذي يرجع إليه وهناك لهجات خاصة بكل منطقة ويمكن لهذه اللهجات أن تتطور إلى لسان شعري يجمع بين خصائص اللهجة المحلية و اللسان الشعري السابق ومثال ذلك الشعر الملحون في شمال إفريقيا وهو " نوع من اللسان الشعري مبدؤه لهجة عربية يظهر فيها بوضوح تأثير الفصحى واللهجات البدوية معا[3] .

والفوارق بين هذا اللسان وهذه اللهجات تختلف تبعا لاختلاف المجموعات اللغوية فهناك لهجات قريبة يكون الانتقال منها إلى العليا أمر سهل واعتبر بلاشير اللغة الفصحى التي عبر عنها باللسان الشعري لغة مجردة على قدر الإمكان من بقايا اللهجات والسبب في ذلك حسب رأيه هو النحويون الذين قاموا بتنهيج اللغة وتنقيتها " مما أدى بهم إلى توحيد لغتي القرآن والشعر الجاهلي في الوقت الذي نظموا فيه واستنبطوا قواعد اللغة العربية الفصحى".[4]

---

(1)المصدر السابق، ص 92.

(2)المصدر نفسه، ص92.

(3)المصدر نفسه، ص 93.

(4)المصدر نفسه، ص 95.

ويختتم رأيه في نشوء اللغة العربية الفصحى بتساؤله عما أضاع اللسان الشعري أثناء هذه الغربلة الدقيقة ،ويجيب: أشياء قليلة إذا اعتمدنا على الفوارق اللهجية التي احتفظ بها من أجل القرآن الكريم.

فالنحاة واللغويون احتفظوا بكل ما يخدم القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكل ما أبعدوه هواللهجات التي تبعد بشكل واضح عن لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلي ويثمن جهودهم في ذلك لأن المهم ليس ما أهملوه من مصادر اللسان الشعري وتحديدهم للمنطقة الجغرافية التي تصلح لغتها للاستعمال اللغوي الفصيح وهي من الحجاز حتى الفرات، من نجد حتى سهول الشام وإبعادهم لما دون ذلك بل المهم أن جهودهم في جمع اللغة ومنهجيتها وغربلتها قد استعملت للاحتفاظ بمختلف الآثار خاصة الأدبية منها التي أبدعت بهذه اللغة.

من خلال رأي بلاشير نجد أن مصدر اللغة العربية الشعرية الأول مازال مجهولا فلا أحد يعرف مصدرها هل كانت لهجة قبلية مهيمنة ،أم أنها جمعت بين عدة لهجات ،أم أن لهجة محلية رفعت إلى مصاف اللغة الأدبية وهو أمر وارد الحدوث فمعروف عن تطور اللغة أنها تبدأ بلهجات تتطور لتصبح لغة رسمية ثم تتفرع عن هذه اللغة مجموعة من اللهجات لتتطور هذه الأخيرة وتصبح لغة رسمية ثانية على أن اللغة الأولى تموت وتجمد وتصبح غير صالحة للاستعمال وهكذا.فاللغة العربية الفصحى المعروفة حاليا قد جمعها النحاة من لهجات قبائل مختلفة توفرت فيها الشروط التي وضعها اللغويون كبعدها عن الشعوب المجاورة وعدم تعرضها للتأثيرات الخارجية كما أخذوا من الشعر و القرآن الكريم واعتبروه المصدر الرئيسي، فهي لغة مجردة كما قال بلاشير، جمعت ووضعت بعناية ولم تؤخذ كما هي في الواقع ثم وضعت القواعد والأسس وليس العكس أي لم توضع القواعد وعليها وضعت اللغة.

وكان هدف اللغويين من ذلك هو المحافظة على التراث الشعري العربي وحمايته من كل ما هو دخيل من شأنه أن يلوث هذا التراث ويبعده عن الأصالة ومن أجل الحفاظ على نقاوة اللغة العربية وتمييزها عن اللغات المجاورة ومن أجل خدمة القرآن الكريم بالحفاظ على لغته وفهم كلماته. أما عن قول بلاشير" أن القرآن الكريم لا يستند على اللهجة المكية بل على لغةالشعر الجاهلي"[1]،فنقول أن القرآن الكريم اعتمد على الاثنين، لأن اللهجة المكية هي محتواة داخل لغة الشعر الجاهلي فالشعر الجاهلي نظم بلغة قريش وما اختلف عنها أو زاد فلا يعتبر غريبا عنها بالقرآن الكريم لأن الفارق بين اللهجة المكية والشعر الجاهلي ضئيل كما قال بلاشير: " إن الفوارق بين هذا اللسان وبقية اللهجات تختلف تبعا للمجموعات اللغوية فالفارق ضئيل بينه وبين لهجات أواسط شبه الجزيرة وشرقيها "[2]كما أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف من بينها حروف اللهجة المكية، فالقرآن إذا اعتمد على مختلف اللهجات العربية وهي لهجات محتواة في الشعر الجاهلي فوجود لغة عليا أو لهجات محيطة أمر ضروري وهذه اللهجات قد تنمو وتشكل لغة يظهر فيها تأثير اللغة واللهجة معا.

---

(1)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ،ص 92.

(2)المصدر نفسه ،ص 94.

4-رأيه في الأدب العربي القديم:

أ- رأيه في الشعر العربي القديم :

تحدث بلاشير عن نمو الأدب العربي وتطوره وبداياته في العصور الأدبية الأولى، ففي القسم الثاني من كتابه تاريخ الأدب العربي تناول نشوءه منذ سنة 50ه - 670 م مبينا كيفية تحقيق النصوص الشعرية وتعدد الأشكال الشعرية منذ ظهورها وانتشار الشعر في الحياة العربية وكذلك رواية الشعر الجاهلي والأخبار المتعلقة به بالإضافة لمختلف الدراسات النحوية واللغوية والتحقيق المنهجي للشعر القديم والطريقة المتبعة لذلك ومختلف المواضيع التي لها علاقة بميدان الشعر من كتب ودواوين وكذلك قضية صحة الشعر الجاهلي والشعر المنحول.

"ولا يشايع بلاشير في طرحه أكثرية المستشرقين وخاصة المتعصبين منهم كمرجيلوت وغيره من الذين ينكرون وجود الشعر الجاهلي، بل إنه يؤكد أنه هناك شعر ونثر لم يتصلا بمؤثر أجنبي إلا في القليل النادر كما أنه لا يساند الاعتقاد الذي ساد بين الناس في أن ظهور الإسلام كان سببا في انقطاع نمو الأدب العربي فهو ينفي التأثير السلبي للقرآن الكريم كما ينفي التأثير الأجنبي وفي هذا يقول :" وفي الحقيقة فإن نزول القرآن الكريم والتغييرات التي طرأت على العالم العربي لم تؤثر تأثيرا واقعيا أو ظاهريا على النتاج الأدبي إلا بعد أربعين عاما من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، أي بصورة مجملة حوالي 50ه- 670م ،فالأوفق إذا اعتماد هذا التاريخ في تعيين الزمن الذي نما فيه الشعر في المجال العربي بأقل تأثير أجنبي ممكن".(2) وبلاشير محق في عدم مساندته لمن يقولون بعدم بوجود إنتاج أدبي عربي قديم لأن الشعر العربي القديم هو مدونة الحضارة العربية التي عاش فيها آنذاك.

كما أن القرآن الكريم لم يكن عائقا في تقدم الأدب وتطوره بل إنه شجع على ذلك، كما قام بتهذيبه في مضمونه وأعطى مواضيع جديدة يمكن أن تخدمه وتجعله أكثر تنوعا خدمة للمجتمع وقام أيضا بعرض تسميات عديدة للشعر العربي القديم، لكنه رأى أنها لا تصلح له ورأى أنه من الأحسن الإبقاء على تسمية الشعر القديم .ومن التسميات التي عرضها شعر ما قبل الإسلام ووجد أنها تفرض تاريخا يستحيل إثباته ولا توحي بفكرة إصلاح هذا الشعر، أي أن الإسلام قد فرض تغييرات وتعديلات على مضمون هذا الشعر كما عرض صفة البدوي ورأى أنها تسمية ضيقة أي أنها لاترتبط بزمن معين، أما بالنسبة لتسمية كلاسيكي فرأى أنها غير مناسبة .وهو محق في اختيار تسمية القديم لأنها تحمل كل الدلالات التي تحيلنا لنوع الشعر والفترة الزمنية المقصودة(3).

---

(1)أحمد سيما بلوفيتش: فلسفة الاستشراق ،ص 333.

(2)ريجيس بلاشير: تاريخ الدب العربي، ص 99.

(3)المصدر نفسه ،ص-ص 99 ،100.

وبعد أن أرسى بلاشير هذه الدعامة القوية انطلق يتناول كافة الجوانب التي تمس الشعر والنثر على السواء ،فتكلم عن تدوين النصوص الشعرية وتعدد أشكال الآثار الشعرية في بداية ظهورها والدور الأول في رواية الشعر الجاهلي حيث تساءل بلاشير في البداية قبل دراسة الشروط التي تم بها تحقيق الشعر الجاهلي عن كيف كان ينظم الشاعر؟ وكيف كانت تشيع آثاره بين الناس؟.

حيث يعرض بلاشير لرأي كرنكو الذي يعطي مجموعة من الدلائل على أن الشاعر في القرن السادس والسابع للميلاد كان يستعمل الكتابة عند النظم ودليله على ذلك أن القوافي النادرة تظهر حقيقتها للعيان أكثر منه للسمع لكنه لا يؤيده فيما ذهب إليه فكيف تكون القافية أكثر ظهورا للعيان منها للسماع؟ كما أن الناس لم يعتادوا على الكتابة إلا في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد من جراء انتشار نسخ القرآن واستعمال اللغة العربية في الدواوين و يضيف أنه حتى ولو قام الشعراء الذين استقروا بمناطق حضرية أقل بداوة كمكة أو الحيرة وكتبوا في رقع بدائية تدل على طلائع الكتابة وسلم بوجود هذه الطريقة في النظم فهي شاذة لا تنطبق إلا على عدد ضئيل من الحضريين, فشعراء الصحراء كانوا دون شك يجهلون الكتابة، وحتى يومنا هذا مازال عدد كبير من البدو يجهلونها. فالارتجال هو المصدر الرئيسي للشعر العربي عند الشعراء في العصر الجاهلي دون ريب .هذه الأشعار المرتجلة من طرف الرجال والنساء وحتى الأطفال والتي صارت موضع إعجاب الأجيال القادمة ومن أمثلة الارتجال التي أعطاها بلاشير معلقة الحارث بن حلزة اليشكري (1) ،فنظم الشعر" عند شعراء العصر الجاهلي كما هو في أيامنا هذه وليد دافع طارئ ووحي آبق يظهر بظهورهما ويختفي بإختفاءهما دون أن تبذل جهود لتوقيفه وتثبيته وتأمين ديمومته" (2) لكن الارتجال لم يكن دائما فكان الشاعر يتحول أحيانا إلى فنان حريصا يعيد النظر فيما ينظمه ومثال ذلك زهير بن أبي سلمى الذي كان ينظم شعره طوال سنة كاملة قبل أن يقوم بعرضه على الناس. إذا أراد لقصائده البقاء وهذا يبرر اختلاف الروايات لنفس القصيدة ،فليس السبب ضعف ذاكرة الراوي فقط بل اختلاف القصائد بسبب التنقيحات المختلفة التي تطرأ عليها عند تأليفها رغم أن هذه التنقيحات لا تفلح إذا علقت الرواية الأولى في أذهان الناس.

ويعود بلاشير ليتساءل أنه ليس هناك أدلة تثبت عدم استعمال الكتابة لتدوين آثار الشعراء أو جزء منها خاصة شعراء الحضر مثل شعراء الحيرة ،عدي بن زيد وطرفة بن العبد والمتلمس أو شعراء الحجاز مثل حسان بن ثابت على أن استعمال البدو للكتابة يبدو أمرا بعيدا وأدلته هزيلة ويخالف بلاشير جولدزيهر الذي يذكر فرضية نشر نصوص مكتوبة للقصائد الهجائية وأن الأدلة التي أعطاها جولدزيهز غامضة. فرغم عدم وجود دليل يؤكد عدم تدوين النصوص الشعرية في البيئة الحضرية، إلا أنه ليس هناك دليل على تدوينها ليخلص أن الشاعر في ذلك الزمن "ينشد قصيدته فتعلق أشعاره في الأذهان عن طريق الرواية المباشرة المتواترة وهكذا فإن القطعة التي لها البقاء تتعرض لكثير من عوادي الزمن والمصادفات"(3).

(1)المصدر نفسه،ص-ص 103، 104.

(2)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص 104.

(3)المصدر نفسه،ص- ص 105،106،107.

إن الشعر العربي موجود منذ الجاهلية ونحن نجد بلاشير في رأيه هذا يؤيد ذلك لكنه يقلل من شأن التدوين قبل الإسلام ومن حجم ما دون آنذاك مرجحا دور الرواية الشفوية في الحفاظ على الشعر الجاهلي وانتشاره بين الناس و هذا صحيح في جانب، لكن هذا لا ينفي وجود التدوين عند العرب في الجاهلية وقد تصدى لهذا ناصر الدين الأسد في كتابه مصادر الشعر الجاهلي ،حيث استقصى شواهد كثيرة دالة على أن حجم التدوين لدى العرب قبل الإسلام لم يكن هينا فأشار إلى واقعة جمع النعمان بن المنذر ملك الحيرة للشعر العربي في الجاهلية وتدوينه ثم إلى رواية لابن الكلبي عما أفاده في أسفار الحيرة ونقوش كنائسها وما كان فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم حيث يقول:" أمامنا إذا في هذه النصوص والروايات شعر جاهلي وأخبار جاهلية مدونة كلها في كتب وأسفار ودواوين من الجاهلية نفسها [1] وقد أشار بلاشير إلى وجود نوع من التدوين وإن كان في بعض المناطق الحضرية فعرب ما قبل الإسلام "لم تكن لهم ثقافة مدونة وعلوم مسجلة فقد غلبت عليهم البداوة واستغرقت حياتهم في التنقل ففشت فيهم الأمية ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضاري حتى أن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي الجزيرة وأكثر ربوعها سهوبا وصحاري.[2]

إذا فطبيعة الحياة لدى العرب حيث كان معظمهم من البدو منعتهم من تدوين كل ثقافتهم كما أن جهلهم للكتابة ساعد على ذلك وإن دون شيء فهو جد قليل مقارنة مع ما لم يدون.

ثم يتنقل بلاشير ليتحدث عن انتشار الشعر في حياة ناظمه حيث أن روايته تخضع لعدة عوامل قد تسهلها أو تعوقها فتعدد الروايات من الصعوبات التي يواجهها لأن الشاعر يعدل و ينقح في شعره بعد أن يسمعه للجمهور القبيلة مثلما كان يفعل زهير بن أبي سلمى كما رأينا. ورواج القصيدة وبقاءها لا يتعلق بالقيمة الأدبية فقط لأنها لوحدها غير كافية بل إن معاصرة الأثر واهتمامه بأحداث القبيلة كتمجيد نصر من انتصاراتها أو تعداد مثالبها أو حروبها وذكر رئيسها وكرمها وذم القبائل المعادية لها يعتبر من الأسباب الرئيسية لديمومة القصيدة التي تصل إلى المستمع بطرق مختلفة وإذا توفرت فيها الشروط التي تجعل الناس مهتمين بها فإنهم يصبحون هم أنفسهم متطوعون لنشرها وإذاعتها بين الناس، فالقصيدة تنتشر إما عن طريق أصدقاء الشاعر أو عن طريق الراوي فلكل شاعر راوي سواء كان من أقاربه(ابن صديق أو قريب) أو غريب عن القبيلة فزهير بن أبي سلمى كان راوية لأوس بن حجر

(1)ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف،ط3 ،مصر1906، ص162.

(2)عمر الدقاق: مصادر التراث العربي، دار الشرق بيروت 1972، ص 24.

وابن زهير كعب كان راوية لأبيه بالإضافة لرواة آخرين وللراوي دور كبير و خطير وهام في آثار الشاعر لأنه ينقل القصيدة من حالة الرواية الفوضوية إلى حالة الرواية المنظمة، فهو ينوب عن الشاعر في النظم إذا عجز الشاعر لسبب من الأسباب ويتعاظم دوره أكثر بعد وفاة الشاعر لأنه يصبح بمثابة الأمين والحافظ لإرث الشاعر المتوفى[1]. ويصل بلاشير بهذا إلى أن" الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر وروايته تلك الآثار في خضم الجماهير".[2] رغم وجود بعض من يقول أن الرواة قد استعملوا الكتابة لتدوين تلك القصائد إلا أن ذلك يبقى بعيدا عن التأكيد وإن حدث فإنه يمس فئة قليلة من الحضريين وجزءا بسيطا من آثارهم.

لقد انتشرت القصائد قديما بين القبائل عن طريق الرواية وخاصة رواة الشعراء، فموضوع الرواية والرواة يعتبر العصب الأساس الذي ارتكزت عليه القراءة الحديثة في كثير من الإشكالات التي أثيرت حول الشعر الجاهلي حيث وجدت نفسها تبحث في هذا الشعر الذي يمتد عمره في الزمن السحيق ولم يلتفت إلى تدوينه إلا في العصر الأموي مع انتقال العرب من طور الثقافة الشفهية إلى طور الاهتمام بالتدوين والكتابة كآلية لحفظ أصول الدين و أصول اللغة العربية بما فيها الشعر الجاهلي الذي يعتبر أحد أصول اللغة العربية كما يمثل ثروات الأجداد والحضارة العربية في عمقها الاجتماعي والثقافي وحتى العقائدي، لكن قبل الوصول إلى التدوين كان انتقال هذا الشعر شفاهيا عن طريق الرواة خاصة إذا عبر عن واقعة أو حادثة مهمة تخص القبيلة وكما هو معروف فلكل شاعر راوية، هذا الراوية مهمته نشر شعر الشاعر الذي يروي عنه والمحافظة على شعره خاصة بعد وفاة الشاعر حيث تصبح مسؤولية الراوي أكبر فإرث هذا الشاعر الذي يمثل إرث القبيلة له أهمية كبرى خاصة إذا عالج قضايا تخص القبيلة وتهمها، أما تدوينها فهو أمر بعيد في تلك الفترة إلا قليلا [3] حيث يروى أن المعلقات قد كتبت بماء الذهب وعلقت على الكعبة وهذا نوع من التدوين لكنه يبقى قليلا كما قال بلاشير.

---

(1)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ،ص-ص107،108،109.

(2)المصدر نفسه ،الصفحة 109.

(3)أحمد سيمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق ،ص 333.

وتحت عنوان المرحلة الأولى في رواية الشعر الجاهلي والأخبار العائدة إليه يتناول بلاشير اكتساب الشعر لصفة الكتابة بعد مرحلة الرواية الشفوية التي بقيت لأمد طويل ويحدد بداية التدوين تسهيلا للبحث اعتبارا من منتصف القرن السابع للميلاد 30 ه- 650 م وهناك عوامل جديدة شجعت على التدوين غير نزعة الميل نحو جمع مخلفات أجيال الشعراء وهي عوامل أشد تأثيرا من العوامل الأولى ولها غايات أعلى ومن هذه العوامل" إنشاء دولة بكل ما تحمله كلمة الدولة من معنى حقيقي وما تبع ذلك من تشكيلات إدارية وكي يجري توزيع الغنائم وأعطيات الجند وتحديد مراكز البدو في المواقع الحضرية المحتملة أو المنشأة حديثا وجبت العناية بالأنساب وقد عرف هذا النوع من البحث في الجزيرة العربية رواجا لا مزيد عليه فهو بوصفه وثيقة تاريخية فكل شيء مقصور على قصائد أو مقطوعات شعرية وأحيانا على بيت واحد حيث يكشف فيه ذكر أصول أو اتحادات أو انفصالات أو هجرات القبائل العربية[1] فتنظيم المجتمع وفق نظام الدولة الجديد يستلزم معرفة الأنساب والأصول وكانت المقطوعات الشعرية كثيرة تشير إلى ذلك حيث اهتم بها النسابون وجمعوها عن طريق الاستذكار والحفظ وهذا ما أدى إلى الاحتفاظ بعدد كبير من المقطوعات الجاهلية.

كما أن حب الاستطلاع الماضي والرجوع إليه بعد أن كبرت الدولة الإسلامية وتم فتح بلاد الشام وفارس ومصر وذلك لتذكر كرم العرب ومآثرهم وقصة ظهور الإسلام وغزو المشركين فكانت هذه الأخبار منتشرة في ثنايا القصائد.[2]"ويعود الفضل في إجراء هذا الجمع المنظم إلى معاوية بن أبي سفيان الأموي وهوالذي أمر عبيد بن شرية الجرهمي حين وفد عليه.[3]

ويضيف أنه مهما كان الداعي من الحاجات العلمية التي دعت إلى جمع الآثار الشعرية وصيانتها أو المصادفة التي كانت سببا في ذلك فإننا نجد فيها نوعا من الاهتمام بالمقطوعات والقصائد التي تمتاز بقيمتها البديعية الجمالية بالإضافة إلى الذوق الذاتي فبلاشير من خلال طرحه يؤكد" أن الشعر العربي كان محفوظا في صدور الرواية وأنه كان معروفا عند قبيلة الشاعر الذي تعتز به وتفخر بين القبائل الأخرى [4] ،حيث يقول: "وأخيرا فلا نكران في أن ظهور شاعر كبير في القبيلة مدعاة للفخر وأن الاحتفاظ بآثاره شيء تفرضه نزعة التفاخر في كل قبيلة ثم أن لضياع ذلك التراث نتائج سيئة تمس شرف القبيلة[5].

نعم لقد فرض تطور الدولة الإسلامية الجديدة تطورا في كل المجالات ،أبرزها الكتابة و التدوين فكان لابد منهما لترسيخ معالم الدولة الجديدة و قد ساعد كثيرا في ذلك النسابون "فعناية العرب بحفظ أنسابها قديمة وقد عرف منهم نفر برواية النسب فكانوا بمثابة المرجع الذي يؤولون إليه إذا اختلط عليهم الأمر .

---

(1) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ،ص 110.

(2)المصدر نفسه ،ص111.

(3)المصدر نفسه،ص111.

(4)أحمد سمايلوفيتش:فلسفة الاستشراق، ص333.

(5) المصدر السابق ،ص 112.

وكان أبو بكر الصديق نسابة ...ويبدو أن دغفلا النسابة وهو جاهلي أدرك الإسلام هو أول من وردت الإشارة إلى تدوينه النسبي في الصحف[1]،كما أنه كان لا بد من التدوين لحفظ ما بقي من التراث في الصدور، فبدأت عملية التدوين مبكرا بعد ظهور الدولة الإسلامية وأخذت تنمو وتتطور مع ازدياد الحاجة إلى ذلك حتى اكتمل تدوين المعارف العربية والإسلامية فكان الخوف من ضياع الماضي بكل ما يحمله مع ذهاب الرواة والحفاظ على تراث كل قبيلة من أهم الدواعي لذلك.

ويواصل بلاشير حديثه عن انتشار التدوين فيرى أن التدوين الكتابي للشعر قد واجه صعوبات كثيرة وهذا في القرن السابع للميلاد وأوضح مثال على صعوبة التدوين في هذه الفترة هو تدوين القرآن الكريم فقد واجه صعوبة في نسخ المصاحف إذ لم يتم ذلك إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ،فما بالنا بالشعر وهو مليء بالأمور الوثنية وما يعارض ما جاء به القرآن الكريم ، لذلك ففكرة تدوين الشعر الجاهلي قد تركزت في أذهان الناس تدريجيا وقد تم ذلك خاصة في الكوفة والبصرة والمدينة ودمشق، حيث وصلت آثار من القرن الثامن عشر للميلاد تخص الشاعر عمر بن أبي ربيعة المتوفى سنة 101ه/ 719م كما أنه في هذه الفترة أمر الخليفة الوليد بن يزيد 90ه/ 807م بجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وكذلك وجدت مصنفات عن القبائل تحتوي على شواهد شعرية متعددة[2]."ولم يعد هذا الاستعمال منذ ذلك الحين عملا منعزلا وصار الناس بحكم المحاكاة يثبتون بطريقة لا شعورية جميع الآثار السابقة التي وصلت عن طريق الرواية الشفوية"[3].

لكن ليس هناك معلومات دقيقة وواضحة تبين مدى اتساع التدوين في هذه المرحلة التي قام بها الوليد بن عبد الملك بن مروان، لذلك بقيت الرواية هي الطريقة الأفضل للحفاظ على القصائد رغم أن ذلك يجعله عرضة لتقلبات الزمن خاصة بعد ظهور خطر جديد وهو ظهور طبقة جديدة من الرواة تختلف كليا عن رواة القبائل وقد ظهرت في المدينة ومكة والبصرة وكان يطلق عليهم اسم الراوية و ظلوا فعالين لمدة خمسين سنة وأشهرهم خلف الأحمر ت 180ه/ 796م وكان الرواة إما من الحضر أو لهم أصول عربية مثل الكلبي وعوانة أومن الموالي كحماد الراوية وخلف الأحمر اللذين كانا ينتسبان بالولاء إلى أسر مستوطنة بالعراق والحجاز[4].وكان هؤلاء الناس على دراية بحياة البادية " يجيدون إجادة لا مثيل لها لغة الأعراب ،مطلعين على أساطيرهم و أخبارهم وأنسابهم ويمتازون جميعا بذاكرة قوية وقد امتدت بواسطة هؤلاء أفق الرواية... فكل أثر شعري ذي قيمة لا بد من أن يحتفظوا به فينتقل الأثر بعد تألق محلي صرف إلى ميدان الانتشار غير المحدود."[5] كما أن النزعة الجمالية كانت ذات قيمة أساسية أمام القيم الأخرى لانتشار القصيدة وتدوينها.

---

(1)ناصر الدين الأسد: مصادر التراث العربي، ص160.

(2)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ،ص 113 .

(3)المصدر نفسه،114

(4)المصدر نفسه ،ص115.

(5)المصدر نفسه،ص116.

لكن هؤلاء الرواة لم يقوموا بتدوين ما حفظوه بأنفسهم بل أن آثارهم قد دونت من طرف الجيل الجديد من العلماء الذين أخذوا على عاتقهم تدوين المعطيات المنقولة" وتبقى القيمة الباطنة للمواد التي رووها تابعة لصفات هؤلاء الرجال الخلقية والعلمية وحذرهم وأمانتهم العقلية ولكن غدا لم يكن لنا مع الأسف سبب واحد للثقة بمناهجهم فعندنا ألوف الأسباب لعدم الثقة بشهادة الكثيرين منهم"(1)فعمرو ابن العلاء 70ه/ 154ه الذي دون كميات هائلة من الشعر الجاهلي والأخبار المتعلقة به ثم أحرقها بعد دلك تحت تأثير أزمة دينية واعترف بالتزييد في شعر العرب لكن الرواة الذين أنشأهم عملوا بجد لنشر ما تعلموه لدلك وجب التحفظ والحيطة من آثار هذا الرجل رغم اعترافه بخطئه ،فما بالك بروايتين كبيرتين كحماد الراوية وخلف الأحمر الذين لم يبرزا أي أثر للتحرج ويكفي الاستناد إلى سيرة هذين الراويين لكي نعرف مبلغ الشك في النصوص الشعرية فحماد عد في صباه من الصبيان الأشرار عاش عيشة زندقة ومجون كثيرا ما كان يدخل السجن وهذه الأمور لا تبعث على الثقة أبدا فيه (2)وكذلك تلميذه خلف الذي تولى نقل محفوظاته ورغم إجماع الناس بمعرفته الصحيحة بالشعر الجاهلي القديم وحدسه المصيب في التمييز بين الصحيح والموضوع لكن ما وصل من شعره يدل على إجادة فن التقليد أكثر منها موهبة شعرية حقيقية.(3)"ويكفي الاستناد إلى سيرة هدين الراويين لكي يدرك مبلغ الشك الرازح على عملية تحقيق النصوص الشعرية والأخبار العائدة إليها" (4)ورغم ذلك ورغم التحفظ والإحجام والحذر منهم إلا أنهم تمتعوا بنفوذ أدبي كبير اقترن بأسمائهم.

وقد كان في بداية الأمر يعتقد أن دس القطع الشعرية المزيفة مجرد لعبة أو تمرين أو تقليد أدبي يوجه "للمريدين من أجل معرفة الزيف والخلل في القصيدة بالإضافة إلى حرصهم على إضمار مقدرتهم أمام عرب الصحراء في نظم قصائد ومقطوعات تفوق أصالتها تلك التي ارتجلها الجاهليون."(5)كما أن إدخال لمسات على القصيدة قد ينشأ عن نية حسنة من أجل تصحيح البيت وإيصاله إلى درجة الكمال وقد تفطن الجيل الذي أتى بعدهم إلى ذلك، كما أثرث الدراسات النحوية واللغوية بصورة جعلت عملية جمع الشعر الجاهلي أكثر دقة ومسؤولية ومنهجية من أجل الوصول إلى تحقيق شبه نهائي لهذا الشعر.

صحيح أن البصرة والكوفة من أكثر المدارس التي اهتمت بجمع الشعر وتدوينه ففي هذه الفترة ظهرت طبقة جديدة من الرواة أخذت عن الرواة الأوائل وقامت بإذاعة هذا الشعر ونشره في كل مكان بعد أن كان محصورا في بعض الأماكن فقط، كما أن عملية تدوين الشعرإرتبطت بعملية تدوين القرآن حيث تم الرجوع للشعر من أجل فهم بعض الألفاظ في القرآن ومن أجل مساعدته على التفسير والشرح للآيات القرآنية الصعبة.

(1)المصدر السابق ،ص 118.

(2)المصدر نفسه ص-ص118،119 .

(3) المصدر نفسه ،ص122.

(4) المصدر نفسه ،ص123.

(5) المصدر نفسه، ص124.

المعاني خاصة مع الإصلاحات التي أجريت على الكتابة، كما أن حماد الرواية وخلف الأحمر يعتبران من أشهر الرواة معرفة بالشعر الجاهلي في هذه الفترة وإن كانا كما يقول بلاشير ليسا أهلا للثقة وهذا ما ذهب إليه بعض النقاد الإسلاميين قبله،لكن هذا لايثبت فساد الشعر المدون كله لأنهما ليسا مصدر الرواية كلها ولا الطعن فيهما هو الطعن في الرواية كلها ،لأن هناك رواة كثيرون غير خلف وحماد والأرجح أن هذا الطعن يعود لفترة الصراع بين البصرة والكوفة ، "فكل فريق يتعصب لمدرسته وأخذ يتهم ويضعف علماء المدرسة الأخرى وخاصة البصريين الذين كانوا يعتقدون أنهم أخذوا اللغة عن العرب الخلص وأن الكوفيين أخذوها عن الأعراب الذين فسدت لغتهم وبصيرتهم".(1)

فاختلاف مصادر الفريقين واختلاف منهجهما جعل التعصب سمة العلاقة بينهما فقد كان بين المفضل وحماد منافسة شديدة ربما بلغت حد الخصومة والاتهام ثم استعملها تلاميذ المفضل ورووا عنها الأخبار ،يتهمون حماد ويقوون مكانة أستاذهم ويتهمونه بالتزييد والوضع والنحل.

كما أن حماد وخلف عرفا بالشاعرية الفذة التي صورتهما الرواية به ثم يكونا بعد ذلك يكبرا الشعر و لا يقيما وزنه فكيف يكون ذلك. فقد أجمع العلماء على أن هذا الشعر ضرب صحيح لا سبيل للشك فيه أو الطعن عليه بعد أن تدارسوا هذا الشعر فيأخذون من الأول في حذر واحتياط ولا يتقبلوا منه إلا ما يطمئنون إلى صحته فقد كانوا يقومون بالجمع والاستقصاء ثم البحث والتمحيص حتى يميزوا الموضوع من الصحيح(2) فمدام أن العلماء القدامى قد اطمئنوا لهذا الشعر وأخذوا به وقبلوه فكيف لنا أن نشكك فيه وعلى أي أساس،فقد خضع هذا الشعر للتمحيص والغربلة قبل تدوينه من طرف جامعيه ومدونيه من العلماء واللغويين.

---

(1)ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ،ص 434.

(2)المرجع نفسه، ص 466.

وتحت عنوان الدراسات النحوية واللغوية والتحقيق المنهجي للشعر القديم رأى بلاشير أن تحقيق الشعر القديم بطريقة نقدية قد تزامن مع حركة العلوم النحوية واللغوية وتوسعها خاصة في العراق وإذا رجعنا إلى المحاولات الأولى للدراسات النحوية واللغوية و توسعها عند العرب" نجد أنها تنشأ عن ميل إلى عرض تركيب اللغة العربية وعملها بل عن حاجة ملحة إلى قراءة القرآن على وجه سليم." (1) ،كما أن مشروع إصلاح الكتابة الذي قام به عبد الملك بن مروان ودراسة اللغة في أولى مراحلها خاضعة إلى سبب تدبر الظاهرة القرآنية وأهم من اهتم بذلك كان في العراق مع ظهور مدرستي الكوفة والبصرة ،والتي كانت مسرحا للمنازعات الدينية والنحوية بعيدا عن أبحاث الشعر رغم أن هذا الخلاف لا يعود إلى زمن تأسيس المدرستين بل إلى أواخر القرن الثالث للهجرة ،التاسع ميلادي وهو ناشئ عن العداوات الشخصية بين رئيسي المدرستين حينئذ وهما المبرد في البصرة وتغلب في الكوفة (2)وهذا الخلاف أدى إلى ظهور مدرسة جديدة تمركزت في بغداد وكان لهذه المدارس تأثير كبير على مختلف الدراسات فقد تناولت القرآن والشعر والأنساب والأخبار وأعطى أمثلة كثيرة عن الاختصاصات والعلماء في هذه الفترة.

وفي القرن العاشر للميلاد " نشأ اهتمام النحاة واللغويين الأولين بالشعر القديم بطريق المصادفة فقد وجدت في القرآن والحديث تراكيب ومفردات وتعابير نادرة غامضة حتى على المسلمين الذين هم من أصل عربي ،مما استدعى تأليف معاجم لتفسير الغريب... ومن الطبيعي أن يلجأ القراء الذين هم أول من نطق بالتفسير إلى الأمثلة المستقاة من الشعر، وبصورة خاصة إلى المنسوب منه إلى شعراء أواسط شبه الجزيرة وشرقيها، وبذلك بني جسر بين لغة القران واللسان الشعري وهذا ما يعلل الانتقال من غرض كدراسة القرآن إلى غرض أكثر اتساعا تثيره مشاكل عدة اقتضتها لغة الشعر وبما أن فعالية القراء النحويين مثل يحيى بن يعمر توافقت زمنيا وفعالية الرواة الذين عنوا خاصة بقيمة الشعر الجاهلي الأدبية فقد نشأ نوع من التكافل الحيوي بين هذين الاختصاصين...فلم يعد الدافع إلى جمع الشعر الجاهلي فرضا عارضة بل أصبح غرضا في حد ذاته فانتقل الجمع من المرحلة العفوية الفوضوية إلى المرحلة الواعية لقواعدها وقوانينها". (3)

فبعد أن توضحت المذاهب النحوية وراء الإطلاع على المفردات وانتشرت الأساطير والحوادث التاريخية بين الناس زادت رغبة الناس في التحقيق في ذلك اعتمادا على مصادر متعددة وليس هناك أفضل من الشعر الذي لم يستعمل بعد،كما أن التحقيق وتفسير القرآن والظواهر العربية فيه جعل العلماء يلجأ ون إلى الشعر القديم.

---

(1)ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ،ص125.

(2)المصدر نفسه، ص126.

(3)المصدر نفسه، ص123.

كما أن الخوف من انقراض الآثار الشعرية خاصة بعد تقدم الزمن ووفاة الرواة والنسيان، جعل أهل العلم يهرعون إلى جمع آثار الماضي قبل أن ينقرض الرواة ويحول الزمن دون ذلك.

يضاف إلى ذلك كله الشعور بالعظمة فقد كانت الأمة العربية في ذلك الوقت أمة متفوقة غالية وكان الشعر دليلا على ذلك يستمدون منه دليل تفوقهم وقد ساعدهم على ذلك حتى الأعاجم الذين حفظوا الشعر القديم مما عاد عليه بالخير الكثير. [1]

فعلا لقد كانت الدراسات النحوية هي السبب في الانتقال من الجمع الفوضوي للشعر وتدوينه إلى الجمع المنظم الممنهج والغرض من ذلك كان في البداية هو خدمة القرآن الكريم.

فالدراسات النحوية واختلاف وجهات النظر أفرز مدرسة البصرة والكوفة في العراق وبعد طول صراع بينهما ظهرت مدرسة بغداد بعيدا عن هذا النزاع الدائر وكانت هذه الدراسات تسعى لفهم القرآن أكثر وتفسيره والشعر من العوامل المساعدة على ذلك، فكان جمعه وتحقيقه ودراسته كما أن الشعر كان سبب شرح مختلف الحوادث التاريخية فهو يمثل حياة الجاهليين ويرسم ألوان معيشتهم ويروي عاداتهم ويتحدث عن أديانهم ويصف بيئتهم ولون ثقافتهم ويعتبر أيضا سجل لأيامهم وأخبارهم وهي أمور أصبح الفرد يريد معرفتها والاحتفاظ بها خاصة مع مرور الوقت ووفاة الرواة فكان التدوين وسيلة للحفاظ على كل ذلك

(1)المصدر السابق ص 129

أما فيما يخص حديثه عن التحقيق النهائي للشعر القديم والطريقة المتبعة فيه والمعطيات التاريخية والترجمة فإنه يذكر الكثير من الذين أسهموا في تدوين الشعر القديم وتتبع المعلومات التفصيلية من أصحابه والوقائع التي صاحبت نظمه وأشهر علمين قام بذكرهما هما أبو عبيدة والأصمعي، حيث أصبحا فيما بعد على رأس مدرسة البصرة فأبو عبيدة اهتم بالأنساب والأخبار واللغة ومسائل النحو،أما الأصمعي فكان مدققا في مسائل النحو والألفاظ بالاعتماد على الشواهد الشعرية [1]"فراح يجمع الشعر الجاهلي المبعثر وتصنيفه في دواوين سميت جمهرات وسار على خطته في جمع الآثار الشعرية أبو عمرو الكوفي و السكيت الكوفي وابن حبيب والطوسي البصريين"[2] .

كما ذكر أبو سعيد السكري وهو خطاط ونسابة ولغوي عالم بأيام العرب، فقد كان يجمع ويصحح ويتمم بعض المجموعات التي تم تشكيلها فقد أعاد جمع و تحقيق كل ما نسب إلى امرئ القيس بطريقة جيدة.

وفي القرن الرابع هجري العاشر ميلادي توجهت جهود الباحثين للدراسة والتحليل بعد أن نفذ معين الرواة فأصبح لكل قصيدة مقدمة نثرية تحكي مناسبة القصيدة ومختلف الحوادث المتعلقة بها خوفا من نسيان الأبناء والأحفاد لهذه الأمور والحوادث بعد ذهاب الآباء "ولقد ظل تدوين الأخبار شغل العلماء الشاغل ماداموا حريصين على الوقوف عند حد جمع المقطوعات الشعرية لتمييز الأنساب وإيضاح تاريخ القبائل والسلالات العربية حتى إذا كان الدافع للجمع استطلاع لغوي وفائدة أدبية أصبحوا مسوقين إلى التصنيف في ميدان هذه المقدمات وقد يستغنى عنها في بعض الأحوال وما هذا إلا مرحلة نهائية للتطور وفي الإجمال فإن البحث عن النوادر والقصص التي من شأنها إيضاح منشأ الآثار الشعرية قد تم بصورة متوازية وتدوين الآثار وتثبيتها" . [3]

فقد اعتبر بلاشير عملية التحقيق التي تأتي بعد الجمع أمرا ضروريا لضمان الحفاظ على هذا التراث ليس بالنص الأصل فقط بل بكل ما يتعلق به خاصة مع مرور الزمن وتقادم النصوص المدونة وذهاب الرواة من أجل إيصال كل ما يتعلق بها إلى الأجيال القادمة وهو أمر تفطن له الباحثين في ذلك العصر.

فقد كان الكلبي وأبو عبيدة من أشهر علماء العصر أعقبهم علماء أتموا أبحاث أسلافهم مثل مصنفات الهيثم بن عدي عن تاريخ العصر الجاهلي الأدبي ومؤلفات المدائني وابن الأعرابي وفي هذا العصر انتهت تقريبا عملية الجمع وقد تكدست وثائق كثيرة لا توحي أكثريتها بالثقة، فكانت بحاجة للتمحيص خاصة بعد تكرار الروايات بأشكال مختلفة تظهر في الربع الثاني من القرن الرابع للهجرة (العاشر ميلادي) أبو الفرج الأصفهاني وقد ألف كتاب الأغاني وهو ذو قيمة كبيرة ومصدر للتاريخ والتراجم والمختارات الشعرية.[4]

---

(1)ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي، ص130.

(2)المصدر نفسه، ص131.

(3)المصدر نفسه، ص133.

(4)المصدر نفسه ،ص 135.

لقد كانت هناك ثقة كبيرة بالعلماء الذين تم ذكرهم عل عكس بعض الآخرين أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر الذي لقي تأييدا من البصريين وانتقادا واسعا من غيرهم ،فكان اختلاف في الآراء وفي حالة المراجع التي دونت فقد كان هناك علماء و موثوقون حسب بلاشير وآخرون مشكوك فيهم يجب أخذ الحيطة في التعامل مع المعطيات التي يدلون بها.

وكان على علماء هذا الجيل ومن أبرزهم الأصمعي، القيام بأمرين أولهما :"القيام بتحقيق النصوص الشعرية والأخبار المتعلقة بها تحقيقا نهائيا إذا أمكن وثانيهما تنقية المواد المجموعة بالاعتماد على التحقيقات الشخصية لدى الأعراب "[1] فأصبح انتقاء المخبرين الأعراب أمرا ضروريا.

فتحري صدق الرواة من أجل عدم إدخال أي روايات موضوعة أمرا واجبا وهي أفضل طريقة للحصول على نصوص أصلية صادقة وذلك عن طريق الرواة الموثوقين وكان اختيار الأعراب يعود لأن لغتهم مثالية بعد أن تواضع اللغويون والنحاة على أن لهجة بعض القبائل تعد عمودا لغويا رغم عدم توافر معلومات كافية عنهم ." إن المعلومات عن هؤلاء الأعراب قليلة وقد يكون أحدهم وليد المصادفة وهم في الغالب مخبرون متخصصون إلى حد ما أطلق عليهم اسم فصحاء العرب ولا نعرف عنهم شيئا وكانوا على اتصال وثيق بالصحراء يترددون على المراكز الحضرية في فترات متقطعة "[2]

لقد تحدث بلاشير عن القواعد التي يجب إتباعها من أجل الحصول على نماذج صادقة فكان الاعتماد على صحة اللغة حيث اعتبرت لغة الأعراب لغة مثالية صحيحة فكان سكان الحضر يبعثون بأبنائهم لتعلمها، فاللغة السليمة كانت شفيعهم عند النحويين رغم عدم توافر معلومات كثيرة عنهم.

وقد اعتبر بلاشير هؤلاء الأعراب من صيادي الفرائد اللغوية أو الأخبار والنوادر فكانت لهم جرأة كبيرة في الإجابة على أصعب المسائل، كما كانوا يدخلون شعرهم الذاتي في القصائد التي يروونها وكان كشف هذا اللبس والتزوير من مهام العلماء البصريين والكوفيين فكان الذوق السليم من القواعد التي يحكم بها على صحة الشعر من زيفه ومن أجل تحقيق هذه القواعد كان لا بد أن يمروا بعدة اختبارات حسب بلاشير فكانوا يمتحنونهم لمعرفة صدق رواياتهم وينتظرون أقل تناقض ليلغوا تثبيتهم للرواية فيكثرون من الأسئلة ويحترسون من المخبرين الدين تجمعهم بهم المصادفة فلا يثقون بهم ثم يعمدون إلى التدوين وليس إلى الحفظ فقط بعد التأكد من الروايات خاصة وأن التنافس الشديد بين العلماء والخوف

---

(1)المصدر السابق،ص136.

(2)المصدر نفسه،ص 137.

من نقد الزملاء والخصوم زاد من التشدد في التحقيق والتصويب وعدم القبول بما لا يجوز يقول :" كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأن طريقة جمع معطيات التاريخ والتراجم والشعر الجاهلي قد اكتسبت تشددا ملحوظا في بحر القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وأدت التحقيقات عند الأعراب إلى حد ما إلى تصفية المواد التي جمعها كبار الرواة فأبعدت بذلك عناصر كثيرة ... ويظهر من ناحية ثانية أن حالة النصوص الشعرية قد طرأ عليها تحسن ظاهر بين الفترة التي جرى تدوينها فيها على يدي طبقة أبو عبيدة والفترة التي أتم السكري فيها التحقيق النهائي" (1) أي أنه أصبح هناك اختلاف في طريقة التدوين مع مرور الزمن، فوضعت قواعد وأسس يجب أن تكون هي المرجع في إصدار الأحكام على هذا الشعر، فقد اكتسب الباحثين خبرة وأصبحوا قادرين بشكل كبير على التمييز بين الصحيح والموضوع، فكان لهذه الجهود نتائج كبيرة حيث أصبح هناك نوع من الترتيب والنقد للروايات الشفهية التي جمعت بشكل فوضوي، لكن هناك تعقيب على ذلك رغم الاحترام والتقدير لكل المحاولات التي قام بها هؤلاء العلماء فمنهجهم كان غير تام، كما أن ولعهم بالأمور والقضايا الغريبة جعل المخبرين الأعراب يستغلون هذه النقطة ويسعون لخلق نوع من الغرابة فيما يروونه حتى أن الأصفهاني قد اعتبر قصة مجنون ليلى لا أساس لها من الصحة في الواقع بل هي أسطورة من أساطير العرب هذه الأساطير كانت تعتبر كنز يجدر تقديره. (2)

ويتساءل بلاشير بعد ذلك حول صحة هذه الروايات خاصة وأن وجودها يقترن بحكم ذاتي صادر عن هؤلاء الأعلام رغم أنه لا شك في سعة علمهم وحكمتهم، كما يجعل في رأيه مجالا للشك والظن بأن العلماء قد عملوا على تحقيق الصيغ الوثنية والمظاهر التي يرفضها الإسلام في بعض القصائد هذا بالإضافة إلى الحرص على صحة اللغة أدى إلى إحداث تصحيحات نحوية لغوية عليها إذا فهناك مخاطر موجودة دائما تحيط بالنص الشعري وتحقيقه "وأولهما نفسه وذلك بحبه للغريب والقصص الخيالية العجيبة وثانيهما مخبروه بتملقهم وحيلهم وثالثهما أسلافه الذين يأخذ عنهم المواد المكدسة دون تمييز أو وازع في أغلب الأحيان فإذا كان هناك خبر غير مروي فلا مانع من إجراء التوافق بواسطة عدة مخبرين وهي الطريقة المطبقة على المواد التي نقلها كبار الرواة ". (3)

أي هناك عوامل عديدة تساعد على عدم صدق النص الشعري، ذكر منها كذب الرواة للتكسب بالرواية أو للتفاخر القبلي أو لأسباب دينية ،كما أن حب الغريب يجعل الباحث لا يرى الحقيقة فقد تصبح الأساطير حقيقية فأفضل طريقة إذا للتأكد من صحته هي الأخذ من عدة رواة رواية لقصيدة واحدة لمعرفة الرواية الصادقة أي عن طريق الأخذ برأي الأكثرية أو بالاعتماد على الذوق السليم.

---

(1)المصدر السابق ،ص139.

(2)المصدر نفسه ،ص140.

(3)المصدر نفسه،ص142.

ومن بين القضايا التي تناولها بلا شير في الفصل الثاني من الجزء الثاني للكتاب قضية صحة الشعر الجاهلي و قضية الشعر المنحول ،حيث يرى أنه ليس هناك تجانس في أسلوب بعض المقطوعات من القصائد و أن هناك عناصر دخيلة قد ولجت القصائد و أصبحت منها و على اعتبار مختلف الشكوك باعتمادهم على الرواية الشفهية و اعتبار مارواه الرواة الكبار أمر نهائيا وتدخل علماء العراق بجمعهم لكل ما سمعوه من الرواة، يجعلنا نتساءل عن العناصر الأصلية والعناصر الدخيلة في هذه القصائد و هو سؤال حاول العلماء الإجابة عنه سواء كانوا من علماء المسلمين أو المستشرقين.

" و في الواقع يمكننا بعد قبول مبدأ إمكانية العثور على عناصر ذات طابع جاهلي ضمن الكمية المتغايرة من النصوص التي في حوزتنا إنه لمن الجائز وذلك باستخدام حذر لتلك النصوص التي بحوزتنا ،أن نكون فكرة عن هذا الأدب القديم"[1] كما يشير إلى أن كل النصوص الشعرية التي وصلتنا من ذلك العنصر لا تحتوي على أي أثر نثري فكلها نصوص شعرية، إلا أنه يستثني القرآن من ذلك وفي قضية الشعر المنحول يعتبر أن البحث عن صحة الشعر الجاهلي أمر بالغ الأهمية و هو قديم قدم هذا الشعر وهو أمر لا يزال يثير اهتمام العلماء العرب و المستشرقين حيث يعرض آراء مجموعة من المستشرقين في هذه القضية منهم نودلكة الذي يشكك في صحة الشعر الجاهلي و كذلك أهلوارد الذي قام بعرض ظروف انتشار الشعر الجاهلي قبل أن يدون وقال أنه شعر غير موثوق في صحته من حيث المؤلف و ظروف النظم المذكورة وحتى ترتيب الأبيات المعروف، لذلك وجب غربلة دواوين الشعر الجاهلي حسب طريقة النقد الأوروبي التي اعتبرها طريقة فعالة لمعرفة الصحيح من المنحول و القول بالجهل في حالات أخرى[2].

كما يعالج الموقف الذي اتخذه المستشرق مرجيلوت من قضية الشعر الجاهلي في بحثه الذي عنونه "أصول الشعر العربي" ، حيث يلاحظ بلاشير أن صنع الشعر كان مسطرا طوال هذا الدور وأن الناس لم يحفظوا عن الشعر الجاهلي إلا ذكريات ضعيفة هزيلة ،فكيف يكون الحال غير ذلك ؟ و الإسلام جاء للقضاء على الو ثنية، فجاءت الإشارات إلى أديان العرب في الجاهلية نادرة كما أن الإشارة إلى المسيحية قليلة و الشعراء كانوا يبد ون وكأنهم يدينون بالتوحيد وهم على علم تام بالدين الإسلامي و قصص القرآن، حتى إذا رأيناهم يتكلمون كالمسلمين و يتصرفون تصرف الوحدانيين صعب علينا عندئذ التسليم بصحة الآثار المنسوبة إليهم ويؤيد هذه الخلاصة دراسة لغة هذا الشعر الذي قيل عنه أنه جاهلي و إذا صرف النظر عن بعض الخصائص اللهجية النادرة فإن اللغة الشعرية ذات وحدة ظاهرة فمن المستحيل و الحال قبول هذه الآثار على أنها أصلية كالتي نسبت إلى العرب الجنوب والتي لاتعكس أي أثر للغة الأم عند أصحابها [3] .

(1)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العرب، ص 181 .

(2)المصدر نفسه ،ص 182 .

(3)المصدر نفسه ،ص 183 .

إن قول بلاشير بأن ظهور الإسلام كان سببا في نسيان الشعر الجاهلي بسبب تعاليمه التي تدعو للقضاء على الوثنية أمر مبالغ فيه، فالإسلام لم يحرم الشعر بل هذبه، أما فيما يخص ظهور بعض معالم الوحدانية في هذه الأشعار فكما هو معروف أنه قبيل ظهور الإسلام انتشرت بين الناس الديانة الحنفية بصورة كبيرة وهذا تمهيدا لظهور الدين الجديد و منه جاءت الأشعار تتحدث عن الوحدانية .

أما القصص المختلفة التي وجدت في الشعر وهي موجودة في القرآن فقد أخذت من الديانة المسيحية التي تشترك مع القرآن في قصص كثيرة ،كما أن الشعر الديني الذي يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير و هو مبثوث في المصادر و الأصول القديمة .و فيما يخص الشعر الجاهلي و دلالته على اللهجات العربية اللغوية فمن منا يشك في ذلك ونحن نعرف عوامل تهذيب اللغة في العصر الجاهلي و أثرها في وحدة اللهجات اللغوية العربية عند الجاهليين و أثر قريش من بينهما خاصة . فكل النصوص التي تشير إلى اختلاف هذه اللهجات اختلافا كبيرا جوهريا فهي نصوص متعلقة با لعصر الذي سبق عصر التوحيد اللغوي و بنزول القرآن كذلك، صار للغة القرشية السيادة المطلقة في اللغة العربية ،فقد كان للأسواق عمل لغوي خطير حيث كانت سببا في التقريب بين لغات العرب و لهجاتهم[1] .

"كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين، كما كان ملك الحيرة يبعث تجارته إليها و يأتيها التجار من مصر و الشام و العراق، فكان هذه الاجتماع الكبير وسيلة من وسائل الاجتماع اللغوي و التقارب بين اللغات واللهجات وكان القريشيون خاصة من بين القبائل العرب وبتأثير اجتماعات الحج والأسواق و الحروب أكثر القبائل ميلا إلى النقد اللغوي فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأنصعها و أفصحها و أخذوا يضيفون ذلك إلى لغتهم فزادت اللغة العدنانية القريشية و قلدت القبائل الأخرى قريشا في ذلك و أخذت عنها محاكية لها في لغتها و لمكانة قريش وإشرافها على هذه الأسواق... فكان لذلك آثاره البعيدة في تهذيب اللغة العربية و توحيدها و جمعها في لغة قريش أفصح القبائل العربية و التي نزل بها القرآن الكريم" [2].

لقد كان لتهذيب اللغة و توحيد مصطلحاتها من طرف القبائل قبل ظهور الإسلام بفضل الأسواق الشعرية والتجارية و الحج سبب في توحيد لغة الشعر و ظهوره بلغة واحدة تقريبا .

---

(1)محمد عبد المنعم خفاجي:الشعر الجاهلي،دار الكتاب اللبناني ،ط2،بيروت،1973.

(2)المرجع نفسه،ص-ص85،86.

ثم يتساءل بعد كل هذا هل نقوم برفض كل الشعر لأنه وضع بعد الإسلام ؟.أم أن هناك كمية ضخمة من الأشعار المنتحلة؟ .و يعرض في هذا رأي مرجيلوث الذي قال بأن الشعر كله وضع بعد ظهور الإسلام والدليل على ذلك عدم وجود أية دليل مادي من نقوش و آثار تثبت ذلك، فقد وجدت في الجزيرة العربية وخاصة في اليمن حضارة راقية جدا لكن دون أن تخلف آثارا شعرية فما بالك ببدو الصحراء ولذالك كان هذا الشعر المسمى جاهليا من وضع القرآن الكريم فهو لم يكن موجودا قبل ظهور الرسالة المحمدية .

ثم يعرض بلاشير رأي المستشرق برونليش الذي يعارض رأي مرجيلوث و يرى بأنه لا علاقة لنمو الشعر بتطور الحضارة، فهناك حضارات غير متطورة لكنها تملك تراثا شعريا و حضارات عرفت تطورا دون أن تكتب شعرا "وعليه فإن عدم وجود الشعر في النقوش الحميرية فقط يؤيد نقص الروابط بين الحضارة الجنوبية و نوع الحياة البدوية في الشمال فهل من اللازم أن نعيد للأذهان أن للجنوب لغة مستقلة عن لهجات الشمال أي أنه عديم الأثر الحقيقي"[1] كما أن النقل الذي قام به الرواة لايعود لنقص أمانتهم بل لطريقتهم غير المفيدة رغم أن هناك نصوص تعرضنا لتأثيرات إسلامية كما أن القرآن لم يخلق الشعر أي أن الشعر الذي جمع في دواوين هو من وضع الرواة الذين تأثروا بالقرآن الكريم و خاصة سورة الشعراء التي حكمت على الشعر الوثني فتفنن الرواة في وضعه في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد)وهو رأي مرجيلوث الذي أيده فيه الكاتب العربي طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي نشره سنة 1926 و الذي أثار ضجة كبيرة بسبب آرائه وكذلك كتاب "في الأدب الجاهلي"الذي نشره سنة 1927 ، الذي اختلف عن الكتاب الأول في طرح القضية بتفصيل أكثر حيث يضيف على آراء مرجيلوث بعض الأمور التي قد تكون دفعت إلى صنع هذا الشعر مثل الظروف السياسية والصراعات القبلية والقصص الشعبية.رغم أنه يصل إلى نتيجة مفادها أن ليس كل الشعرمنحولا بل مابقي من الشعر القديم وهي نظرية تقترب مما يعتقده معظم المستشرقين أمثال جولدزيهر ويليام مارسيه، تربيتون ،غودفروا ،ديمونبين[2] "وليس كل مافي هذه الكمية الهائلة من الشعر الجاهلي لم يطرأ عليها الفساد ولكن الإتفاق لم يكن إجماعا على هذه الآثار التي سلمت من عوادي الزمن ...وجدنا في حالات عديدة أن دراسة المعنى تتطلب دراسة المبنى كالأسلوب و اللغة وأن تقديرنا يظل ذاتيا"[3] ،كما أنه يضيف إلى ذلك أن الانتحال لا يخص الشعر وحده بل يتعداه إلى النثر ويصر على أنه لا يوجد سطر واحد يعود إلى العصر الجاهلي حقيقة باستثناء القرآن الكريم .فالآثار المتبقية من العصر الجاهلي قد امتزجت بالآثار المنحولة حتى أن القطع المنحولة صيغت بطريقة فنية رائعة تطابق كل المزايا التي تتميز بها القطعة القديمة فلا يكون هناك مجال للتفريق بين الصحيح و المنحول.

ثم يعرض مجموعة من الأعمال المشكوك في صحتها مثل ما دس في كتاب الأغاني ورواية مجنون ليلي و قصيدة منسوبة للأعشى و أخرى للذبياني "ولكن هذا كله ضرب من التخمين لا الجزم و هذا يدل على أننا مسوقون أيضا إلى عدم الفصل في القضية أو البحث عن وسائل أخرى لإبعاد النصوص المصنوعة ".

(1)ريجيس بلاشير :تاريخ الأدب العربي، ص 185.

(2)المصدر نفسه ،ص-ص186-187.

(3)المصدر نفسه، ص 188.

(4)المصدر نفسه ،ص190.

ثم يورد مثالاعلى ذلك وهو ماجاء في قصيدة لزهير و التي تحتوي على طابع تبشيري قرآني أي أن موضوعها ذو طابع إسلامي و ليس جاهلي يقول زهير :

فلا تكمتن الله مافي نفوسكم ليخفى و مايكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

ويقول بأن ماجاء في البيتين يذكربما جاء في القرآن الكريم من حيث الفكرة و الأسلوب و المفردات كما يورد أبيات منسوبة للنابغة الذبياني :

ولا أرى أحدا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام أحد

إلا سليمان إذ قال الإلاه له قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمربالصفاح و العمد (1)

حيث يشكك المستشرق نود لكة في هذه الأبيات، فقصة سليمان عليه السلام هذه وردت في أقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فكانت هذه الأبيات للوعظ و استخلاص العبر فإن كانت هذه الأبيات مركبة تركيبا لغويا سليما فإن التركيب النبوي له دور كذلك في صحة الأبيات فالتحريف إذا لا يثبت إلا إذا تظافر فيها المبنى و اللغة لكشف الانتحال يقول :" إن من خواص المقلدات أن يكون أكثر أصالة من الأصيل ولكي نكتشفها بين كتلة الشعر الذي قيل عنه أنه جاهلي وجب أن يكون في حوزتنا آثار غير مشكوك في صحتها يمكن أن تتخذ معيارا إذا صح التعبير وهذا ما ينقصنا بالضبط لأننا مجبرون على اللجوء إلى عصر متأخر لكي نكون فكرة عن النقول الشعرية السابقة للقرن السابع " .(2)

فالنتيجة التي يصل إليها بلاشير من خلال طرحه هي أن النصوص ذات الطابع الجاهلي تتألف من نصوص بقيت منذ ونصوص مقلدة لهذه البقايا من الشعر فلا جدال في أن لغة الشعر قد أصابها تحريف متعدد قبل أن تصل إلى مرحلة التدوين، حيث نجد لغة موحدة استعملها الشعراء رغم اختلاف قبائلهم و عصورهم فلا نجد أي اثر للهجات القبلية و هي بالتأكيد قواعد جاء بها نحاة البصرة بعد أن وضعوا لغة موحدة تعتبر عمود اللغة العربية و استغنوا عن باقي اللهجات في التدوين وجمع اللغة،رغم وجود بعض البقايا اللهجية هنا و هناك بين ثنايا القصائد التي تعود لتنوع اللهجات حيث نجد أن بلاشير يعرض لرأي مرجيلوت الذي يؤكد أن كل الشعر الجاهلي موضوع ،كما عرض رأي المستشرقين الآخرين الذين يرون أن جزءا منه صحيح و الجزء الأخر موضوع وحجتهم في ذلك هي الرواية الشفوية غير الموثوقة فبلاشير يكثر الشك حيث يقرأ المرء الشعر الجاهلي بما فيه من قصائد منسوبة إلى أحد الشعراء بعد مضي الكثير على تأليفها وهو بهذا يدلي بدلوه في قضية انتحال الشعر الجاهلي كما فعل غيره من المستشرقين ولكن في صورة معتدلة و إذا أجبنا على بلاشير فنقول:" إن

(1)المصدر السابق، ص 190 .

(2)المصدر نفسه ،ص 191 .

نسبة الأثر الجاهلي إلى صاحبه صحيحة لماذا ؟ لأن الرواية الشفهية كانت الطريقة المثلى التي حفظت لنا الشعر الجاهلي من الفناء فزهير مثلا كان راوية أوس بن حجر... وكان لكل شاعر راوية وهذا معروف وكان الرواة على علم بالشعر أيضا يعرفون الصحيح من المنحول ... ونحن لانمنع أن يكون هناك بعض المدسوس بيتين أو ثلاثة على الأكثر أما أن يكون هذا قضية مسلمة نجزم بها على أن الشعر الجاهلي كله ضعيف النسبة، منحول الى غير مؤلفيه أو شعرائه وهذا مالا يقره عاقل أبدا و لايتكلم بهذا إلا الجاهل بالشعر العربي و أسراره ويريد أن ينفذ من وراء هذا إلى النيل من عقيدة المسلمين وما إلى ذلك [1].

حيث يتبع بلاشير هذه القضية من بدايتها الى منتهاها ، فقد تناول نودلكة هذه القضية ملقيا ظلال الشك عليها لأول مرة بعد الدراسات القديمة التي أشارت إليها وجاء بعده آهلوارد فعرضها بنفس الصورة وسار على النمط نفسه باسيه وليال وبركلمان فلم يزيدوا شيئا في القضية إلا الإيغال في الشك و التردد و أما مرجيلوث فقد جاء بنظرية موغلة في الشك إلى أبعد الحدود ومن العجيب أن اتبعه بعض الكتاب المحدثين من العرب كطه حسين، فكان ما ذهب إليه أن الكثرة المطلقة مما نسميه الأدب الجاهلي ليس من الجاهلية في شيء و إنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام [2] .

لقد كان الشعر الجاهلي عرضة منذ الجاهلية نفسها وسنوات الإسلام الأولى للوضع و النحل و الانتحال ولم يكن الوضع و النحل في الشعر الجاهلي ليخفى على الرواة العلماء، فقد تنبه كثيرون منهم بل قلما نجد راوية عالما من رواة القرن الثاني و القرن الثالث للهجرة لاتنكرلنا الأخبار المروية عنه أنه نص نصا صريحا على أن بيتا أو أبياتا بعينها موضوعة منحولة " فمن الطبيعي أن يفترض المرء هذه الظوهر الشائعة في كل مكان غيرأننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها الشخصية الفردية مايكفينا للاستدلال على أن القصائد في معظمها من نظم الشعراء المنسوبة إليهم...فمن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة إليهم مصنوعة في العر متأخر صنعها علماء عاثرو في الطرف مغايرة تمام المغايرة و في شديدة الاختلاف عن حيات الاعراب في الصحراء العربية [3] .

فالشعر العربي لم ينشأ من العدم فلولم يكن موجودا منذ الجاهلية وحفظ في صدور الرواة لما كان هناك شعر في صدر الاسلام و السنوات اللاحقة، فالفترة الإسلامية متصلة بالفترة الجاهلية وليس هناك فاصل بينهما فهناك شعراء مخضرمين بين الفترتين، كما أن شعراء الفترة الإسلامية استمروا في نظم الشعر مستقين التقاليد الجاهلية دون أن تكون هناك فجوة بينهم .

---

(1)أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق، ص 335 .

(2)المرجع نفسه ،ص 336 .

(3)ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ،ص- ص 372، 373 .

فبعد أن عرض آراء المستشرقين جولد زيهر ودور نبورغ و باسيه و ليال و مرجيلوت الذين يعتقدون بأن الدوافع الدينية لدى المسلمين شجعتهم على التخلص من كل الصيغ المقدسة التي تشير إلى الوثنية ، و استبدال كلمة اللات الوثنية بكلمة الله التي تدل على الإسلام نجده يعارضهم و يفند طرحهم هذا إذ يقول: "ثمة كثير من الظواهر لا تزال باقية إذا كانت نادرة فإن الزمن هنا و هناك عدا عليها و أن الشاعر العربي في ذلك الزمن كان إما قليل الانشغال بالأمور الإلهية أو أنه كان حريصا على عدم مزجها بأموره الدنيوية ،أما إحلال كلمة (الله) محل كلمة (اللات) فغير مقبول إذ ثبت اليوم استعمال كلمة الله بوصفها تسمية إلهية عليا سابقة للإسلام " (1) .

ليعود للتساؤل عن مدى الإصلاحات التي قام بها كبار الرواة و علماء العراق على الشعر القديم رغم أن هذه الإصلاحات قد تكون عبارة عن لمسات جمالية أي بدافع مثل أعلى أدبي و يجيب أنه لايمكن معرفة ذلك بدقة لأن المسألة تزداد تعقيدا لأن هذه الإصلاحات قد تضيف للنصوص الجزالة التي يعتبرها العلماء حلية الشعر الجاهلي و منه تكون كل الجهود المبذولة للتفريق بين النصوص الصحيحة و النصوص المقلدة باطلة خاصة أن بعض القصائد التي تتعد رواياتها لم يفصل أثناء تدوينها في أي رواية هي الأصح فجمعت كل الروايات وصفت أمام بعضها و هذا ما جعل عند دراستها استحالة تحديد منشئها و لا شك أن ضعف الذاكرة أثناء الرواية الشفهية كان له دور كبير في ذلك، مما أدى إلى استبدال المترادفات لكنه يؤكد أن لاشيء يثبت ذلك ويجيز عدم نسبة الأثر إلى زمن ظهور القصيدة. رغم أن تعدد الروايات هو ما قد يجعل من القصيدة أصلية تعرض تقلبات الانتقال من زمن لآخر و من راوي لآخر و القصيدة ذات الرواية الواحدة هي التي قد تبعث الشك (2) و كما كان منتظرا" فإن تدوين الشعر الجاهلي قاد في نهاية الأمر إلى إيجاد طبعات ثابتة لا تتغير و قد مهد لهذا العمل علماء العراق الذين ادعوا لأنفسهم الحق بالتميز بين عدة روايات محققة و كل هذا يحمل على الاعتقاد أيضا أن بعضهم و بخاصة السكري قد خلطوا معا عدة تحقيقات متنوعة و مختلفة في الطول" (3).

فبلاشير يرى من أنه من الصعوبة معرفة النصوص التي تعرضت للنحل خاصة و أنها عرفت تعديلات زادتها جمالا و جزالة كما أن تعدد الروايات لقصيدة واحدة زاد الأمر صعوبة فأيها أصح ؟. رغم أن هذه المزية قد تصبح هي الدليل على أصالة القصيدة فتعدد الروايات يدل على أن القصيدة موجودة حقا عكس القصيدة ذات الرواية الواحدة التي قد تكون صحيحة ،حفظت من زمن لآخر أو قد تكون قد وضعت فلا تعرف إلا بالرواية التي وضعت بها، كما أن تشكيكه في علماء العراق وفي أمانتهم أمر مبالغ فيه فقد اعتمدت مدوناتهم من طرف الدارسين وقبلت ولايوجد ما يؤكد رأيه هذا بالخلط و الدمج بين روايات متعددة لخلق نموذج معتمد رغم أنهم قد يدونون عدة روايات لقصيدة واحدة .

(1)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص 193 .
(2)المصدر نفسه، ص 194 .
(3)المصدر نفسه ،ص 195 .

ومع مرور الزمن وانتشار الطباعة و النشر الحديث رسخت هذه الروايات و نسيت كل هذه الاختلافات رغم أنه يكون هناك دائما إشارة لاختلاف الروايات واختلاف ترتيب الأبيات في بعض القصائد .

فرغم الشك المحيط بهذه القصائد إلا أنها رسخت و أصبحت تعبر عن شعر قديم له مكانة في التراث العربي و الأدب العربي خاصة .

ويصل بلاشير إلى خلاصة مفادها :"أن دراسة النصوص الشعرية تقودنا من جهة ثانية إلى وضع مبدأ يقضي بعدم امتلاكنا أي أثر شعري في شكلة الأصيل المحدد بدقة فليس يحوي كل بيت من الشعر فوارق يغدو الانتخاب فيها عملا تعسفيا فحسب بل إن المقطوعات و القطع التي نعتبرها قديمة تتكشف عن تحريفات ذات مصادر مختلفة ولمسات جرت بوعي أو بدون وعي أو تتكشف على وجه الترجيح عن إعادة تركيب متأخرة ونعلم لكي تتم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالعناصر القديمة التي يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات ."[1]

لكن المهم في كل هذا يعد هذا الجدل حول انتحال الشعر الجاهلي هوان القصيدة أو القطعة المشكوك في أمرها تخدم الفكرة التي كونت عن الشعر الجاهلي حتى انتحالات حماد وخلف تصبح مساعدا لنا على فهم ذلك الشعر فإذا كان علماء العراق لم يكتشفوا هذا الانتحال فكيف لنا ذلك بعد مرور قرون من الزمن و تغير و تبدل مختلف الأمور [2] .

إذا كان علماء العراق المختصين و العارفين بالشعر و أصوله لم يعرفوا أن هذه القصائد منحولة فكيف لنا نحن بالتساؤل والشك فيها، على أي أساس نقوم بذلك؟ فهذا دليل على أنها قصائد صحيحة مادام أهل الشعر اعتبروها كذلك، فالأصح أن نقول أن هناك بعض القصائد قد زيد فيها أو غير في بعض أبياتها أي أن بعض الشعر منحول وهذاصحيح أما اعتباركل القصائد أصيلة ولا وجود لأثر شعري كما قيل في الأصل فهذا أمر مبالغ فيه هدفه التشكيك في تاريخ و تراث الأمة العربية وهو أمر اعتمده الكثير من المستشرقين المتعصبين كمرجيلوت وجولدزيهر

ففي قضية انتحال الشعر العربي القديم قام بلاشير بعرض ظروف تدوين الشعر العربي القديم حيث عرضها و أرخ لها تأريخا منطقيا موضوعيا في ترتيب الأحداث و ظهور الرواة و التدوين و مختلف المدارس في العراق واختلافها في قبول الأشعار كما أنه عرض لمختلف آراء المستشرقين في القضية و قام بنقد البعض منهم مرجيلوت حيث لم يوافقه في نفيه للشعر العربي كله وكان رأي بلاشير الذي استقر عليه أن جزء من الشعر العربي صحيح وجزء منه قد نحل وأنه بعد أن رسخت رواياته أصبح من الصعب التفريق بين الموضوع و الصحيح منه

(1) المصدر السابق، ص 198.

(2) المصدر نفسه،ص-ص 198، 199 .

ليصل في نهاية المطاف إلى أن الشعر المنحول لايختلف عن الشعر الصحيح لامن حيث الأفكار أو اللغة أو الشكل فقد خدم هذا الشعر شكلا و مضمونا حتى أن أعلم أهل الشعر به لم يستطيعوا أن يميزوه لذلك فقد أصبح ذا قيمة توازي الشعر الصحيح منه و لا مجال لتفريق في قيمتهما بينهما .

إذا فنظرة بلاشير إلى الشعر العربي القديم هو أنه شعر موجود منذ الجاهلية، حفظ بالرواية الشفهية وانتقل من جيل لجيل عن طريق الرواة حتى وصل إلى عصر التدوين فانكب عليه العلماء يجمعونه ثم وضعوا قواعد و شروط لمعرفة الصحيح من المشكوك فيه و كان السبب في جمعه في البداية هو الحاجة لفهم بعض ألفاظ القرآن الغريبة لكن هذا الشعر خلال مسيرته قد تعرض لكثير من الصعوبات جعلته يصلنا بغير شكله الأصلي الذي قيل به، بسبب ضعف الذاكرة أو بسبب ظهور الإسلام الذي هذب هذا الشعر ولم يتركه كما كان من حيث المواضيع .

فبلاشير إذا يرى أن بعض هذا الشعر صحيح لكن الجزء الآخر هو شعر منحول أي موضوع من طرف الرواة الذين اتخذوا من رواية الشعر مهنة لهم خاصة و أن بعضهم لايوثق بهم كخلف الأحمر و حماد الراوية نظرا لسيرتهما غير الطيبة التي عرفا بها .

لكنه رغم ذلك لم يذهب مذهب المستشرقين الآخرين خاصة مرجيلوت منهم، الذين يرون أن لا وجود للشعر الجاهلي وأن كله موضوع .

كما كان تأريخه للحوادث و ترتيبها من رواية الشعر وجمعه و الداعي لذلك كان بموضوعية تامة و حيادية التزم فيها بالصدق و الرجوع للكتب العربية القديمة كمصادر أعتمد عليها في دراسته .

ب - رأيه في النثر العربي القديم :

في الفصل الثالث يتحدث بلاشير عن النثر المسجوع الموزون ويرى أن العرب كانت لها نثر منذ زمن قديم جدا لكنه نثر ذو صلة بالسحر ويعرف النثر المسجوع باعتباره نثر يتميز باستعمال وحدات إيقاعية قصيرة إجمالا تتراوح بين أربعة أو عشرة مقاطع لفظية أو أكثر تنتهي بفاصلة وتجتمع هذه الوحدات الإيقاعية في سجعة مماثلة و كل وحدة إيقاعية لا تحتوي بالضرورة على العدد ذاتة من المقاطع اللفظية و يمكن ترجمة كلمة سجع بالنثر المسجوع الإيقاعي و قد ساعدت هذا النوع من النثر بنية الحروف العربية و كلماتها في توسعه و انتشاره فهي تحتوي على مقاطع إيقاعية متماثلة تزود المرتجل بالفواصل المسجعة للمولعين بالرنين اللفظي[1].

ويوغل السجع في القدم أكثرمن أي أثر أدبي آخر رغم أن هذه الآثار النثرية المسجوعة لا يثبت وجودها و إذا قام الباحث بدراسة جدية وجد أنها منحولة و أن المؤلفات الأصلية قد اختفت و العينات التي بقيت مشكوك في أمانة أصحابها أو أخذت عن الجيل الثالث أو الرابع من الرواة.

و يعتبر السجع أداة تعبيريه غير معتادة برزت خاصة في القرن السادس للميلاد فهو ناتج عن الارتجال و مرتبط بالطقوس المشربة بالسحر ومعتقدات الأجداد و يظهر خاصة في الأمثال و الأقوال السائرة و في الخطب الخاصة و خطب التنفير و صيغ شعائر الحج كما تستعمل في المراثي التي تستعملها النساء في مواكب الجنائز و أداة تعبيرية عند الكهان و العرافين و من الممكن أن تكون هذه التكهنات الموضوعة على ألسنة الكهان الجاهليين التي ظهرت تحمل تاريخ القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) [2] .

والكاهن غالبا ما يكون ذا مكانة عالية في القبيلة فهو جزء من مجلس القبيلة أوحتى رئيسها وبحكم كهانته تكون له سلطة داخل القبيلة أوحتى خارجها كما تقوم الكاهنات بقيادة قبائلهن استثنائيا. ويشاركون في مختلف الفعاليات التي تكون في قبائلهم ويتقاسمون العيش معهم ومصائرهم وينقلون التنبؤات عن الطريق جنيهم الذي يلقيها لهم فغالبا ما يتنبؤن بالمستقبل وحدوث الكوارث ويعتبر بلاشير أن هذه التنبؤات التي وصلتنا مصنوعة موضوعة نسبت لكهنة جاهليين وفي حقيقة الأمر ظهرت في القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد [3] .

فبعد ظهور الإسلام وانتشاره اعتبر هذا النوع من النثر الإيقاعي المتعدد الأسجاع و ثني المنشأ بعد إدراكهم أنه يختلف جوهريا عن الوحي لذلك ظل لوقت طويل مذموما ولم يلتفتوا إلى هذا النوع من النثر .

يعود بلاشير ليؤكد من جديد على قضية الانتحال في النثر كما أكدها في الشعر فهو يعتبر الآثار النثرية المدونة منحولة لأنها أخذت عن الأجيال اللاحقة من الرواة أما الآثار الجاهلية الأصلية فيؤكد على اختفائها رغم أنه يعترف بوجود نثر اتصل غالبا بالسحر والعرافة.

(1) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ص-ص202،203.

(2) المصدر نفسه،ص-ص204،205.

(3) المصدر نفسه ،ص206.

لكن في حقيقة الأمر فإن بعض الصور من النثر عند العرب الجاهليين قد بقيت رغم ضياع الجزء الأكبر لعدم تدوينه و لعدم وجود روايات له و النثر الجاهلي كثير و من مظاهره الخطابة و الأمثال و الحكم و الوصايا و المفاخرات و المنافرات و القصص الخرافية و الأسطورية .

كما أن السبب في فقدان الجزء الأكبر من سجع الكهان هو عدم تدوينه بسبب جهل العرب بالكتابة أو جهل أكثرهم و لذلك قل المروي منه، بعكس الشعر الذي سهل حفظه و روايته لما فيه من قيود الوزن و القافية مما يجعله عالقا بالقلوب و الأذهان [1]، فطبيعته الغنائية سهلت بقائه و كذلك فإن الطبيعة الوثنية لهذا النثر المرتبط بالسحر جعلت الناس يذمونه و ينفرون منه، مما أدى لضياعه لكن هذا لا ينفي وجود نصوص أصلية تمتد بجذورها إلى العصر الجاهلي قد حفظت ورويت و دونت فيما بعد .

و في الفصل الخامس من الجزء الثاني لكتاب بلاشير يتناول إبداع النثر الأدبي و الفن الخطابي و ذكر العوامل الجديدة لتطوره ،فنشوء نثر قانوني أدبي علمي خاصة بعد أن حلت اللغة العربية محل اللغة الفارسية و اليونانية في فأصبحت لغة الديوان ولزم عليها مطابقة الإدارة ببلاد الشام وهذا زمن الخليفة عبد الملك بن مروان 685م الحاجات العملية ،كما وضعت في هذه الفترة الأولى الخطوط الأولى لتعلم النحو و عولجت الظاهرة القرآنية و وضحت الفرائض الدينية ووضعت النصوص الفقهية و من هنا يمكننا تصور نشوء نثر بسيط مجرد من كل تصنع يعبر عما كانوا يبتغون [2]، و بعد انتقال الخلافة إلى العراق سنة 742 م أعلن تفوقه الأدبي خاصة بعد ظهور مدرسة البصرة و الكوفة و امتزاجهما بعناصر فارسية وأجنبية وعدم الرضا على الوضع السائد، فقد كانت الشام تعاني من صراعات سياسية أما الحجاز فانه كان منطويا على نفسه محافظا على التقاليد السابقة ولم يستطع منح الشعراء ما يصبون إليه في الشعر الغزلي.

وفي هذه الفترة نلاحظ تطورا قد بدا ونموا قد طرا على النثر الخطابي [3] فقد كان للفن الخطابي دور في تكوين النثر الفني فقد كانت القبائل في القرن السادس للميلاد أو قبله تمتلك نثر مسجع يفوق الفن الخطابي يصلح خاصة للوعظ الديني رغم أنه لايصلح خاصة للوعظ الديني رغم انه لايصلح لكل الاستعمالات بسبب عدم القدرة على التعبير بحرية وقد حفظت نماذج كثيرة من الفن الخطابي بعد انتقال شفهي طويل الأمد رغم أن الجزء الأكبر من هذه النماذج مزيف دونت في منتصف القرن2 ه/8م حتى حوالي منتصف القرن 3ه/9م فكل الخطب المنسوبة للعصر الجاهلي لا يوجد أي نموذج منها مقبول أما الخطب التي تعود إلى بداية الإسلام فنجد أنها احتفظت ببعض النوى القديمة فقد جهد المدونون العراقيون في تثبيتها لكنه لم يبق اليوم سوى بقايا ظل استعمالها دقيقا وبعض النماذج من الخطب الاستنفارية الموجزة معبرة هنا وهناك في الكتب الدينية كصحيح البخاري وكتب التراجم والسير والكتب الأدبية [4].وتتميز هذه النصوص بأنها تأتي على شكل جمل أخاذة أومقاطع من خطبة موجزة وأحيانا

---

(1)ناصرا لدين الأسد :مصادر الشعر الجاهلي، ص136.

(2)ريجيس بلاشير:تاريخ الأدب العربي، ج2، ابراهيم الكيلاني ،الدار التونسية للنشر،تونس ،1986،المؤسسة الوطنية للكتاب 1986،ص833.

(3)المصدر نفسه :ص 834.

(4)المصدر نفسه :ص835

وأحيانا خطب مطولة مركبة قدمت على أنها خطب مرتجلة و هي إما خطب مزيفة أو مجموعة أعيد تركيبها كقطع الفسيفساء لتكون مناسبة لمقتضى الحال خاصة إذا كانت خطب مشهورة حيث يقوم الوضاع بالحرص على أن تتلاءم والفكرة التي كونت عن الشخص الذي نسبت إليه الخطب ولهذا تصل الخطب مشوهة في أساسها بسبب الحال التي كانت عليها الرواية الشفهية وقتها وبعدها عن التدوين الكتابي مع وجود بعض الخطب المتوازنة ذات ترابط محكم مثل خطبة حجة الوداع للرسول صلى الله عليه وسلم سنة عشرة للهجرة. (1)

لقد ساعد ومنذ عهد قديم عدد من العوامل على نمو الخطابة في المجال العربي وكانت تحكم علاقة قبيلة بأخرى كالصراع من أجل أراضي الرعي والخطب المعدة لإنهاء النزاع أو مناقشة الديات وثمن الدم "وقد كانت تسنح فرص للموهوبين لكي يعلنوا مزايا فصاحتهم، وكان يطلق على الناطق بلسان القوم في أواخر القرن السادس اسم الخطيب وسمت أقواله خطبة وكان يحتل مكانة رفيعة في قبيلته وكان يفتخر بوجود خطباء مشهورين فيها ".(2)

لقد كان الخطيب من أعضاء القبيلة وقد يكون سيد للقبيلة فيمثلها سياسيا، يرأس الوفود إلى الملوك أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة يبرزمن خلالها تفوقه على أقرانه ومجد قبيلته وأشهر الخطباء الذين ذكرهم الجاحظ في البيان والتبيين و الذين امتدوا من سنة 11هجري ،أكتم بن صيفي الحكيم وعطار بن حاجب بن زرارة.(3)

وكان للإسلام علاقة كبيرة بالفن الخطابي حيث كرسه من أجل نشر الدين الجديد مثل دورا حاسما في تطوره وذلك بعد أن أصبحت الخطب العامة والاحتفالية لإقامة الشعائر الدينية حيث كانت تقام الخطب في المساجد وتقدم فيها العظات وتستقبل الوفود من القبائل المختلفة في بلاد الشام و البصرة والكوفة، وقد منحت الخطب مكانة هامة في الحياة الحضرية فأخذت السياسة في النمو بعد ظهور الفرق السياسية المؤيدة والمعارضة للحكم فكان التنديد والإرشاد (4) وأراد الخطباء تقليد القدامى فقدمت لهم خطب مزيفة لكنها محكمة الصنع والتركيب وكان أول نموذج يتحدى به من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم . وتجاوبت الخطب مع الحاجات التي كانت تنتاب المجتمع في مختلف القضايا فكانت الخطب تنسب لكل شخصية إسلامية معروفة كالخلفاء الراشدين والصحابة كما استخدم معاوية وأخاه زياد بن أبيه والحجاج لهذا النوع من النثر لخدمة الحكم الأموي (5) .

وإذا أردنا تتبع مسيرة النثر وانتقاله من الفن الخطابي والشفهي إلى تكوين نثر أدبي فإننا في الواقع لا نملك نصا مقبولا يثبت ذلك وأنه لا يمكن سوى الاعتماد على الحدس ، فقد تكون خطبة الوداع وقد تكون خطبة الحجاج التي ألقاها سنة 694م 75 ه وقد تكون نقطة نهاية عند تعريف قصص كليلة ودمنة في منتصف القرن 2ه/7م وهنا يتساءل بلاشير عما يكون قد حدث بين نقطة البداية والنهاية أو عن العوامل التي ساعدت على نموه وتطوره؟.

---

(1)المصدر السابق، ص-ص835،836،837.

(2) المرجع نفسه، ص839.

(3)المرجع نفسه ،ص840.

(4)المرجع نفسه، ص843.

(5)المرجع نفسه،ص845.

عالج الخطباء في الفترة مواضيع أكثر سموا و اتساعا من الخطب السابقة ،فالخطيب لا يرتجل بل يجب أن يتثبت ويعد الخطبة فسامعوه يحكمون عليه من خلال التأثير الذي يحدثه فتكون ردة الفعل حماسية أو الهجومية فكانت الخطب إما ذات اتجاه سياسي يقوم بها أصحاب البلاط أو المعارضة من شيعة وخوارج و تتسم بالمهارة في معالجة الموضوعات و إظهار المفارقات في المجتمع فهي ذات طابع فني كامل متوازية في أجزائها و مرصعة دون مبالغة بالمحسنات الأسلوبية شأن ما كتبه الأمير قطري بن الفجاءة حيث كان هناك تطورا في الأسلوب .و تعتبر الخطبة الجمعة عاملا ثابتا قد تطور الفن الخطابي حيث جعلت الخطيب يشعر بضرورة تأمل خطبته و تحضيرها بهدف الإقناع و الترابط بين الحجج فكانت الخطب السياسية و خطب الجمعة إذا عاملا قادرا على اكتشاف نمط تعبيري من شأنه أن يغدو نثرا أدبيا في اللغة العربية .وتميزت هذه الخطب باستعمالها للنثر المسجوع لكنه نادر في النصوص التي وصلتنا و كان التأثير في الجمهور هو الهدف،فجاء في صيغ موجزة و حكم و أمثال معتمدين على الأبيات الشعرية و المجاز لكن هذا لا ينفي استعمال العبارات المكثفة[1].

لقد كان للخطابة شأن عظيم في العصر الجاهلي و الإسلامي فيما بعد و كان للخطيب مركز مهم لا يقل عن مركز الشاعر،حيث يشترط فيه السيادة في القوم و الكرم و الخلق و العمل بما يقول ،قوي الحجة فصيح اللسان و بما أن الأمة العربية أمة حربية فقد توفرت لديها دواعي الخطابة و الأنفة و الأخذ بالثأر و التفاخر بالأنساب وهي مقامات تستدعي الخطابة و تجعلها قوية مزدهرة[2].

كما أن الخطب الجاهلية كان يغلب عليها السجع و قصر الجمل و وحدة الموضوع و الارتجال الذي تتسم به حياتهم و تتسم بقوة التأثير و حرارة العاطفة و هو أهم مظهر للنثر الجاهلي[3].

و كل هذه الأمور أشار إليها بلاشير كما أنه قام بتتبع مسير تطور الخطابة بكثير من الدقة و الإيضاح وأبرز أهم استعمالاتها خاصة بعد ظهور الإسلام و اتخاذها وسيلة لنشره، كما أنه سما لاشك فيه أن كثيرا من الخطب قد نحلت و نسبت الكثير منها لغير قائليها ،لكن هذا لا ينفي وجود عدد كبير من الخطب الصحيحة التي وصلتنا و التي حفظت في صدور الرواة نظرا لشهرتها وأهمية موضوعها و لجمال كلماتها.

(1)المصدر السابق،ص-ص850،851.

(2)ناصر الدين الأسد:مصادر الشعر الجاهلي،ص106.

(3)المرجع نفسه،ص-ص107،108.

في الفصل السادس يواصل بلاشير معالجته لقضية النثر الأدبي حيث عنونه بالمواد الأولى لتأليف نثر أدبي أدبي،الأدب القصصي حتى سنة 5 ه 742م، فيؤكد بلا شير أن "الشعر لم يكن يمثل ثقافة العالم العربي كلها فقد نما إلى جانبه أدب شفهي كان يساعده نمط الحياة و إذا ما استندنا إلى الوقائع العصرية وجدنا بأن حفلات السمر أسهمت منذ ذلك العهد بالحكايات التي تحكى في إبقاء حماسة موروثة للقصص و الأساطير "[1] و هذا صحيح فلم يكن الشعر وحده هو التراث الذي مثل الثقافة العربية بل كانت هناك أنواع أخرى تنتمي إلى النثر كالأمثال و الحكم و الخطب و القصص الأسطورية و الخرافية.

فالمعطيات التي تشكل هذا الأدب وجدنا أنها تتعلق بالتاريخ و التقاليد الشعبية و هي نصوص رغم قلتها إلا أنها تعرفنا بالدور اليد مثلته المرأة و الولد المحارب ورئيس القبيلة و المبشر المسلم في القرنين السادس و السابع للميلاد اتجاه الطبيعة و الموت و الخير و الشر، فنجد الخيال يختلط بالواقع فالرواية الشفهية كما هو ظاهر عملت على ألا نملك أي حكاية في شكلها القديم.[2]

و يعتبر القرآن الكريم نقطة انطلاق ذات قيمة كبيرة ،لها غايات جديدة تقوية وكانت معجزة للنبي محمد صلى الله عليه و سلم .فالقصص عند النساء و الأطفال خاصة، رغم وجود قصص و حكايات معروفة في الحجاز و أماكن أخرى، أما أيام العرب فقد صارت غائبة في الحكايات و حل محلها نصر الله على الأمم الكافرة فكل هذه القصص من غير القرآن لا نستطيع نسبها إلى العصر الجاهلي.[3]

وقد بقيت القصص في القرن الثاني و الثالث و الرابع هجري محتفظة ببعض العناصر و المميزات القديمة و ميزة هذه القصص التي جمعت أنها لا تفرق بين الواقعي و الخيالي في القصص والأساطير و بين الايجابي و الخرافي فليس هناك حاجز ظاهر بين الخرافة والأسطورة البطولية مثلا.[4]

إذا فقد كان للقرآن الكريم دور كبير في نمو النثر و قد اعترف بلاشير بذلك خاصة القصص المستقاة من القرآن الكريم و التي عوضت القصص السابقة وذلك بما فيها من عبرة و مواعظ لتماشيها مع الدين الجديد.

كما أن عدم وصول هذه القصص القديمة بشكلها الأصيل يعود إلى طبيعة الرواية، فالقصص تعتمد عليها بشكل كبير وقد وضعت لهذا الغرض كما أنه من طبيعة القصة أن يضاف إليها مع مرور الزمن أحداث جديدة، فكل جيل يرويها بما يناسب زمنه، حيث يولد الحدث ليصبح قصة ثم تنتشر هذه القصة بين الناس و بعد أن تصبح معروفة مع مرور الزمن تصبح من التراث الشعبي الذي هو ملك للجميع فيتصرف فيها الأفراد و يضيفون و يحذفون. يضاف إلى ذلك أن التدوين لم يكن منتشرا في تلك الفترة كما هو معروف.

---

(1)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص 853.

(2)المصدر نفسه، ص854.

(3)المصدر نفسه،ص-ص855،856.

(4)المصدر نفسه،856.

أما بالنسبة للقصص الخرافية و التي هي نوع من أنواع النثر فيرى بلاشير أن القصة الخرافية في العصر الجاهلي تتميز باحتوائها على عناصر عجيبة غير واقعية حيث كانت الغيلان و الجن و الكائنات الخرافية والسحرة الخارقون أهم ما تدور حوله ،"ويتصف هذا النموذج من الحكايات عموما بترابط الحادثة المشدودة أحيانا بطريقة واهية ونحن مطلعون فقط على عدد محدود جدا من هذا النوع من القصص المسندة إلى العصر الجاهلي"[1]،فهي جافة تقتصر على حادثة أو حادثتين و لا يميل إليها الناس كثيرا خاصة أن العلماء العراقيين الذين لم يهتموا لأصحاب العقول الرصينة، فالخرافة تدل على الحكاية العجيبة بجمعها و تدوينها كالشعر و غيره لأنها لم توضع و تحتوي على معنى الخرف أو فساد العقل من الكبر و الهراء، فأكثر من اهتم بهذا النوع هم النساء والمرضعات لإسكات الأطفال الصغار الذين يذكرونها عند الكبر .

فقد مثلت هذه الحكايات الخرافية تمثيلا سيئا من طرف الرواة العراقيين في ذلك العصر خاصة و أنها لاتجمع إلا إذا كانت جزءا من الثقافة الذكورية أما إذا كانت نسائية فلا حاجة لذلك. و موضوعات هذا الجنس كانت إما عربية أو أجنبية دخيلة رغم أن الأخيرة كانت قليلة و محدودة نقلت إما عن طريق طوائف اليهود أو المسحيين في اليمن أو تكون قد عرفت في المراكز الحضرية [2] و أكثر القصص انتشارا هي الخرافات التي تذكر الشياطين و الجن و هي قصص أنشاها قصاصون ذكور و ليس نساء على الأرجح ، فالجن قد يصارع مسافرا و يضلله عن الطريق أو قد يختطف طفلا من الأشراف و قد يتجسد في شكل حيوان ينقذ طفلا من الموت و بعد مجيء القرآن كما هو معروف، قسم الجن إلى قسمين جن اختيار و جن أشرار، حيث يظهر في العصر الإسلامي قصص سليمان عليه السلام و تحكمه في الجن الذي يفعلون من أجله المعجزات وقد شربت هذه القصص بالمعتقدات الإسرائيلية و برزت هذه الأساطير السليمانية في القرن السادس و السابع للميلاد خاصة [3] و يصل بلاشير في نهاية حديثه عن القصة الخرافية إلى أن "معرفتنا للقصة الخرافية في العصر الجاهلي مشوهة إلى حد يستحيل معه تقدير أهمية هذا النوع و لعله من اللائق مع ذلك الشارة إلى الدور التحتي الذي قامت به هده القصة في نمو الفكر العربي الإسلامي و من الممكن التوصل بالتعميم عن طريق قصص سليمان و الجان إلى الاستدلال عن المكان الذي تشغله الخرافة في فكر تحملنا الظواهر فيه فقط على الاعتقاد بانتصار صفات غالية أخرى" [4] .

فالقصة الخرافية إذا هي جزء من التراث العربي فكل فكر ينتمي لأي أمة خاصة عند تكوينها وتطورها من البدائية إلى طور التقدم، لا بد لها أن تكون الخرافة جزء من تراثها لأنه بواسطة الخرافة يمكنها الإجابة على كثير من الأسئلة العالقة ،كما تتخذ للتسلية و الترفية خاصة عند النساء و الأطفال و هذا ما بينه بلاشير في الخرافة عند العرب في القديم كما أن حدوث أي تطور و حادث يغير من فكر تلك الأمة لا يقضي على الخرافات تماما بل

(1)المصدر السابق، ص 856 .

(2)المصدر السابق ،ص ص 857،858 .

(3)المصدر نفسه، ص-ص859،860.

(4)المصدر نفسه، ص 861 .

يجعلها تتطور من خرافتها وتدعمها بقصص وأفكار جديدة مثلما حدث مع قصص الجن عند العرب فقد قسم إلى شرير وخير وهذا بعد ظهور القرآن الكريم وحديثه عن هذا الموضوع، فالقرآن الكريم بمثابة الطفرة التي عبرت الفكر والمعتقدات العربية القديمة والتي انعكست في الفنون الأدبية الشعبية ومنها الخرافة وهو ما لم يخفى في الدراسة التي قدمها بلاشير عن تطور الخرافة.

أما الأسطورة البطولية فهي تعالج قصة شخص أوتي قدرة فوق بشرية SUR HUMAIN وتعود للعصر الجاهلي وقد ثبتت أكثر مع ظهور القران الكريم ومن أكثر القصص انتشارا في ذلك العصر قصة الاسكندر التي غزت مخيلات الناس في العالم العربي وانتشرت انتشارا واسعا، كماخضعت للتكييف مع البيئة المحلية وأطلق عليه اسم ذي القرنين فهي قصة مشربة بالفكر المسيحي اثبت وجودها بالقرآن الكريم وكذلك هناك ملحمة تبع التي ذكرت في القرآن الكريم وهي ملحمة بطولية يمنية استوعبت أبطالا عديدين مثل الملك ناشر النعم وولده شمر، أما الجيل الذي عرفه محمد صلى الله عليه وسلم يتبع فهو اسعد أبي كرب المؤمن عابد الكعبة رغم أن الخرافة تخالط هذا النموذج [1] .

وقد ألهم القرآن الكثير من القصص البطولية مثل قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام ورواية ذي القرنين، كما نجد قصة لقمان ملك عاد وهو غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم لتتبلور القصتان وتظهر في هيئة حكيم استولى عليه التفسير ملكا لعاد وكذلك قصة سليمان عليه السلام ومملكة سبأ. ونفس الأسلوب يتكرر فيما يخص توثيق القصة البطولية فهي لاتختلف عن توثيق القصة الخرافية حتى منتصف القرن الأول للهجرة (السابع ميلاد) وبفضل التفسير والمؤرخين نجد أن القصة البطولية احتوت على عناصرمحلية ودخيلة وعناصر تمتد لزمن بعيد وعناصر جديدة أكثرها إسلامية وعدد الأبطال فيها يكون محدودا جدا فكان لقمان وسليمان وذو القرنين يدلون على العناصر الدخيلة مصدرها النصرانية واليهودية" فكانت القصة البطولية في العصر الذي نحن بصدده شأنه شأن كل أدب شعبي إبداعا جماعيا ومستمرا وهل حال القرآن كما قيل دون انتشار ملاحم رستم واسفنديار التي أقبل عليها بينهم سكان الحيرة في أواخر القرن السادس هذا ممكن جدا لأن الظاهرة القرآنية بالمقابل أغنت الكنز العربي النوعي الخاص سواء بإضافة ملاحم جديدة أو الاهتمام بموضوعات كانت في الأصل معروفة لدى الطوائف اليهودية والمسيحية فقط"[3] وقد تغيرت بعض القصص البطولية بعد ظهور القران الكريم وذلك في سبيل الدعوى للتقوى والتخلي عن الوثنية .

يتحدث بلاشير في الأسطورة البطولية عن تأثير القرآن الكريم في هذا النوع من القصص حيث أصبحت القصص القرآنية والتي أثبتت قصص موجودة من قبل خاصة في الفكر المسيحي مثل قصة الاسكندر أكثر القصص تداولا وتغذية لمخيلات الناس في ذلك العصر.

---

(1) المصدر السابق ص-ص862،863.
(2) المصدر نفسهص- ص865،866 .
(3) المصدر نفسه ص867.

وكذلك قصة موسى عليه السلام نبي اليهود و قصة الخضر ،فالقرآن إذا دعم ما كان موجود أصلا من الأساطير وصحح معظمها لتتماشى مع دعوة الدين الجديد، كما أنه أتى بقصص جديدة لم تكن معروفة وأصبحت أكثر القصص شيوعا وقد عانت القصة البطولية مثل غيرها من الأنواع الأدبية في قضية التدوين والرواة .

أما في حديثه عن الأسطورة التقليدية، فقد شبهها بالقصة الخرافية وكغيرها من الأجناس الأدبية فقد أسيء تمثيلها عند الرواة والمدونين "وكان المقصود بالنسبة لساكني المحيط العربي في العصر الجاهلي عرض مظهر جبل أو واد أو صخرة أو مغامرة أو اكتشاف سبب تكوين مخلوق عجيب و اختلط هذا النوع من الأساطير في العديد من النقاط بالأسطورة الخرافية أو البطولية" (1)مثل قصة المذبح الذي كان يضحي عليه إبراهيم عليه السلام بابنه إسحاق عليه السلام حسب بلاشير لكن عند المسلمين أن إبراهيم كاد يضحي بإسماعيل عليه السلام وكذلك قبر اللص المسمى أبا رغال، الذي يرجمه المارة والأساطير المتعلقة بمسخ الإنسان على شكل حيوانات وقد تعرضت هذه الأساطير لتأثيرات لاحقة حيث دونت متأخرة وكانت هذه التأثيرات على الأرجح إسلامية مثل القصة التي ذكرت في القرآن حول مسخ طائفة من اليهود قرودا .

وتبقى هذه الأساطير حسب بلاشير لا خيال و لا لون لها، حيث تذكر القصص دون تفصيلات كما تشير الأساطير التعليلية لأعمال قام بها الإنسان وهي أعمال ذكرت في القرآن الكريم مثل صرح هامان الذي أمر به فرعون وسد مأرب باليمن و قصور ثمود وهي قصص غذت الأسطورة التعليلية في القرن السادس للميلاد ،كما كانت هناك قصص مذكورة في الشواهد الشعرية رغم شكنا في صحة هذه الأشعار مثل قصة قصر الخرونق في الحيرة (2) .

كما يضاف إلى هذه الأساطير، الأساطير التي تبحث عن الأنساب وأصل الأشخاص الذين سميت القبائل تيمنا بهم وتبحث كذلك في العلاقات الأولى بين القبائل والعشائر وتعطي ملامح الأجداد الأولون وسيرة حياتهم وهي ليست قصص خرافية ولا أساطير بطولية كما يضاف أيضا إلى هذا النوع من الأساطير القصة التفسيرية منذ القرن السادس للميلاد والتي سعت لتفسير اسم مكان ما عن طريق الأسطورة مثل اسم الكوثر ,السلسبيل وهما نهران بالجنة والزقوم وهي شجرة بالنار والأعراف التي تدل على مكان بالآخرة فقد نسجت حولها الأساطير ومنه"كان على الأساطير التعليلية التي أملتها طبيعة الأشياء وجب الاستطلاع ورغبة الاحتفاظ بتراث الأسرة والعشيرة أن تبرز بمناسبة وجود كلمات نادرة في الأمثال والأشعار وأخبار الأنساب ومن العسير تأريخ هذه المعطيات التي هي نتيجة أبحاث متأخرة قام بها العلماء العراقيون وعلى كل حال فإن هذه الأساطير تترجم إذا أخذت إجمالا عن نشاط فكري وجهد ساذج ورصين في آن واحد لعقول كان يريها هول الفراغ"(3) أما فيما يتعلق بمحاسن الأشخاص ومساوئهم فقد عبر عنها الأدب القصصي.

(1) المصدر السابق ص868.

(2) المصدر نفسه ص869.

(3) المصدر نفسه ص870،ص801

حيث تناول المكر و الخداع و الابتهاج والفطنة و الحيلة و تتميز هذه القصص بصعوبة إخضاعها لمعايير إسلامية و من القصص نجد القصص الطريفة في كتب الأدب و مجامع الأمثال و الأقوال المأثورة لكن السؤال المطروح هو هل بقي فيها شيء من العناصر الجاهلية؟ .و جاء الجواب أن هذه القصص قدجددت تفاصيلها وجددت حسب الوسط الجديد حيث حل أشخاص و أسماء محل أشخاص أخرى . وهي قصص يمكنها أن تعطينا فكرة عن العقلية السائدة آنذاك ونجد أنها عكس القصة الخرافية قد وجهت للمجتمع الذكوري أكثر منه إلى النسائي وكان أبطال هذه الحكايا من الحمقى و الأذكياء و الأزواج المخدوعين و النساء الخائنات و يرتبط غالبا بمثل أو قول مأثور أو اسم شخص معروف[1] وتتميز القصص الطريفة بأنها تتلاقى أحيانا كثيرة بالقصة التعليلية التي تتصف بغياب العنصر الخرافي وقد تشكلت سلسلة من الحكايات حول الحمقى مثل هنبقة الذي وجد فيه العلماء العراقيون شخصية دقيقة "[2]كما كان للجبان نصيب من هذه الحكايات في مجتمع تحكمه القوة و الغزو و سبل العيش وتستخدم هذه القصص لتفسير الأمثال و يستمتع بها المجتمع الذكوري خاصة .كما أنها مليئة بالجمل الماجنة و الكلمات البذيئة[3] .

كما يتحدث عن قصص الشطار و الأذكياء و هي عكس قصص الحمقى و المغفلين نجد بها شخصيات أسطورية لكن ذات مقاييس إنسانية تشبه شخصيات الحكماء كما نجد بها أمثال تقوم عليها القصة مثل المثل القائل: أجود من حاتم، فقد كان هذا المثل قصص شبه أسطورية تشكلت باسمه فهي قصص تمجد أصحابها و قد يكون أبطالها من الكهان مثل زرقاء اليمامة و كانت صفة الدقة و الملاحظة و الحذر أكثر الموضوعات التي شكلت هده الحكايات ذات أشكال متعددة تعالج العقلية السائدة آنذاك [4].

لقد تناول بلاشير النثر العربي القديم بكثير من الموضوعية و الدقة في طرحه و تحليله حيث قام بسرد أنواع النثر العربي كالخطابة و القصص الخرافية و البطولية و التعليلية و قصص أخرى هي قصص الشطار و الأذكياء و الطرائف كما تناول أنواع أخرى للنثر كالحكمة و المثل و هي أمور لم نتعرض لها بالشرح و التحليل.

وقد تناول المكونات الأولى للنثر الأدبي و هو عبارة عن نثر قصصي حيث عرف بكل نوع من الأنواع القصص و ذكر ما يميزه عن غيره، كما قام بسرد تطور هذه القصص و نموها في الجاهلية و الفترة الإسلامية و كان السبب في هذا التطور غالبا هو ظهور القرآن الكريم حيث أدخلت تعاليمه على مختلف أنواع القصص ،كما أصبح مرجعا تستقى منه القصص الجديدة وكان التدوين دائما عاجزا عن وصول إلى القصص الأصلية كما ظهرت، مما أدى إلى انتحال الرواة لكثير من القصص،وهو تاريخ صحيح في أغلب طرحه حيث اعتمد في ذلك على مصادر أدبية عربية قديمة.

---

(1)المصدر السابق،ص- ص 872 ،873.

(2)المصدر نفسه ،ص873.

(3)المصدر نفسه،ص-ص874 ،875.

(4)المصدر نفسه ،ص 875.

لقد كان رأي ريجيس بلاشير في ظهور النثر العربي القديم و تطوره ذكر مختلف الأنواع التي تكون منها، يتميز بكثير من الموضوعية و الحياد وافق فيه معظم الدراسات العربية التي تناولت هذه المواضيع حيث اعتمد على المزهر و الفهرست و الأغاني و مروج الذهب وهي قيمة و غيرها وهي كتب قيمة لها وزنها في الأدب العربي .

"فالكتاب تجربة جديدة لبلاشير تظهر فيه الموضوعية الشديدة و وفرة الخبرة و الدراسة بالأدب العربي و أسراره ويطالعنا في كل موضوع برأيه الخاص الذي كان نتيجة دراسة وتمحيص [1] .

رغم أن هناك من يرى أنه يفتقد للموضوعية، حيث يشككون في آرائه ودوافعه للقيام بهذا النوع من الدراسة . يشكل هذا النوع من الممارسة التحليلية عدوانا على أدبنا العربي و تاريخية وذلك عندما يقتله و يقتل الحياة فيه ويبرز فيه ما يشاء ويختزل ما يشاء ويعيد صياغتة وفقا لتوقعاته و انتظاراته منه في حين يتعلق الأمر بتراثنا الأدبي الذي هو جزء من بيئتنا الثقافية و كياننا المعنوي،لذلك فمن المعروض قراءة التاريخ العربي و الأدبي أن يتم من موقعنا التاريخي لا من الموقع التاريخي للغير فالأدوات المنهجية والإجرائية التي جاء بها المستشرقون يمكن اعتمادها كمكتسبات علمية إنسانية عامة لكن على أساس ملاءمتها و اتساعها ضمن المنظور الخاص .ويرجح الباحثون موضوع الرغبات الدفينة و الأغراض الخاصة لبعض المستشرقين من حجج لتأكيد آراهم وهي قضايا مؤسسة على علاقات الصراع بين الإسلام و المسيحية وتقوم على شبكة واسعة من الأحكام المسبقة و الرغبات الدفينة التي يقوم عليها الوعي الجماعي العربي المسيحي [1] .

لكن بالمقارنة بين آراء بلاشير و المستشرقين الأخرين كمرجيلوت مثلا وطريقة الطرح التي اتبعها والبراهين التي قدمها نجد أنه وقف وقفة موضوعية حيادية ودرس دراسة تاريخية حيث عرض الوقائع بكل منطقية رغم بعض الطروحات التي جاءت مبالغ فيها لكنها لا تفقد كتابه مصداقيته في معالجة تاريخ الأدب العربي القديم .

---

(1)أحمد سمايلوفتش : فلسفة الاستشراق، ص 332 .

(2) محمد مدني : التأريخ الاستشراقي للأدب العربي و إشكالية المركز و الهامش، مجلة التسامح، متاح على الشبكة: www.altasamoh.net

5-أثر المرجعية الغربية في آراء بلاشير في الأدب العربي القديم :

للمستشرقين كتب عديدة في تاريخ الأدب العربي تتفاوت شهرتها وقيمتها العلمية أمثال كتاب مختصر الأدب العربي للمستشرق الانجليزي جيب الذي سلك فيه تقسيما إقليميا زمنيا و كتاب الأدب العربي منذ نشوئه حتى العصر الأموي للمستشرق الإيطالي نيللو و كتاب كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي الذي صدر في أجزاء عديدة ويعد من أعظم هذه المحاولات أثرا في تاريخ الاستشراق وأوسع مصدر يعتمد عليه المستشرقون خاصة، إلا أنه يبقى إحصاءا هائلا منظما للآثار المطبوعة و المخطوطة في التراث العربي.

أما الأستاذ ريجيس بلاشير فقد قام بمحاولة جديدة في تاريخ الأدب العربي مستفيدا من كل التجارب السابقة ،فسلك طريقا جديدا في التأليف محاولا الربط بين تطور المجتمعات و الوقائع الأدبية و يختلف هذا الكتاب عما سبقه من تواريخ الأدب بأمور منها:

1-"العناية باشعاعات المراكز العقلية و التيارات الفكرية في العالم العربي .

2-اكتشاف أنواع من الزمر العقلية المكونة من عباقرة الأدب العربي الذين أثروا في بيئاتهم و تأثروا بها فأصبحوا بذلك أمثلة تحتذى لمن عاصرهم و جاء بعدهم بما أوجدوه من مذاهب أونماذج أدبية جديدة .

3-إبعاد كثير من الآثار الفلسفية و التاريخية و اللغوية و الفقهية و غيرها مما لا يدخل في نطاق الأدب الصرف والاقتصار على الآثار التي ألفت لغاية فنية و التي تثير عند القارئ ما يسميه فاليري بالحال الشعرية.

على أن الأستاذ بلاشير لم يستطع التخلي من ميوله التاريخية، فقد غلبت على طريقته التأليفية مدرسة (لانسون)مؤلف تاريخ الأدب الفرنسي المعروف باسمه و هي الطريقة القائمة على المبالغة في تكديس المصادر و الإيغال في جمع الوثائق والمعلومات وضبط التواريخ توصل إلى ايجاد مقاييس تقييمية دقيقة للرجل و أثاره و من مزايا طريقة لانسون الصبر والدأب على تحري الحقائق و البعد عن الحكم السريع و الوقوف من القضايا الغامضة موقف الشك و الانتظار وهي أمور يشعر بها كل من يقرأ مؤلفات الأستاذ بلاشير[1] .

فقد حاول ريجيس بلاشير رسم صورة ثقافة وحضارة الأخر وهي حضارة تتساوى مع ثقافة المركز بإجماع الغربيين، فكانت ثقافة الإبداع فيه أكثر حضورا من ثقافة الغزو الفكري و الحضاري ودراسته و ترجماته للنص العربي القديم من الترجمات القيمة لما يطبعها من رؤية عاشقة لقراءة الحضارة العربية بدا فيها بلاشير الفرنسي عاشقا للعروبة والإسلام .

فبلاشير مدرسة أدبية متميزة في دراسة التراث العربي القديم و ترجمته و هي ذات إشعاع عالمي يمثلها جيل من الأدباء اللامعين العرب و غير العرب في دراسة الأدب العربي و ترجمته سواء من طلبته أو من طلبته الذين تأثروا بشخصية بلاشير العلمية في مواضيع البحث وفي عشقه الفريد للغة العربية[2].

---

(1)ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص06.

(2)أية العلمي :ترجمة النص العربي القديم و تأويله عند ريجيس بلاشير، متاح على الشبكة:

Lahodod.blogspot.com

لقد درس التراث العربي و امتدت هذه المدرسة إلى كل أقطار العالم العربي و غير العربي،إذا فقد عشق ريجيس بلاشير اللغة العربية في زمن كانت فيه موضع كره عند الأوروبيين فوجد فيها كما وصفها لغة المجد،كما وجد في الشعر العربي جنة خفية ومع أنه كان ذا إلمام كبير بدراسته اللغات المختلفة إلا أن جمالية اللغة العربية أثارت اهتمامه وشغفه الكبيرين وقد دفعه شغفه بالشعر العربي إلى دراسته و ترجمته و تأويله مع العلم بأن تذوق شعر مكتوب بلغة غير لغته الأصلية، يتطلب معرفة عميقة باللغة و العروض وهي معايير يراها بلاشير أساسية لولوج هذه الجنة الخفية و قد كان بلاشير أيضا عالما مثقفا وسياسيا وعمل على تشجيع نشر الثقافة العربية فكان من أولويات اهتمامه تأسيس جمعية تطوير الدراسات الإسلامية و مركز استقبال الطلبة العرب في فرنسا، كما امتاز في حياته بدفاعه المستميت عن استقلال شعوب إفريقيا الشمالية فناهض السياسة التي انتهجتها فرنسا في هذه البلدان .وقد تأثرثقافيا و اجتماعيا وحضاريا بالبيئة المغربية التي عاش فيها منذ طفولته و هو ابن الخامسة عشرة إلى أن التحق بفرنسا سنة 1935وهو ابن الخامسة والثلاثين لدرجة أنه أوصى قبل وفاته بأن يكفن بجلبابه المغربي إشارة إلى عمق الصلة الروحية التي كانت تربطه بالمغرب وبيئته، حيث يعود الفضل الأكبر إليهما في اتجاهه إلى دراسة الإسلام و العربية و اختياره الاستعراب سبيلا له في الحياة كما جاء في رسالة بعث بها تلميذه أندري ميكيل إلى زميله الدكتور محمد مقداد [1].

فهو إذا مستشرق يمتاز عن بقية المستشرقين أنه يعرض قضايا الأدب و يعطي خلاصة ثقافته فيه بوضوح تام وصراحة كبيرة ونزيد عن ذلك أنه استوعب الدراسات السابقة التي قام بها المستشرقون قبله ومن هنا نراه يعارضهم تارة ويصحح بعض مساراتهم في الأدب العربي تارة أخرى وهذا مالم نره عند غيره من زملائه وقد ألف بلاشير كتبا خطيرة عن الأدب العربي وترجم القرآن الكريم و ألف كتبا عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لم يترك مجالا من مجالات الفكر العربي في العصر الجاهلي إلا وتناولها بالدراسة والتحليل وهي تنم عن تجربة جديدة تظهر فيها الموضوعية الشديدة ووفرة الخبرة لدراسة الأدب العربي و أسراره [2].

---

(1)حورية الخميشلي : ريجيس بلاشير، العربية لغة المجد و الشعر العربي جنة خفية ، 6 ماي 2010 ،متاح على الشبكة :41: 10 www.sahafi.jolsart info.php 2010/11/09

(2) أحمد سمالوفتش: فلسفة الاستشراق، ص ص331 ، 332 .

خاتمة:تعرض هذا البحث إلى موضوع تمظهر أدب الآخر في مؤلفات المستشرقين و حاول التوقف عند أراء المستشرقين ،و صورة الآخر في مؤلفاتهم،وكيف كانت الصورة الايجابية و الصورة السلبية.

ووصل إلى أن الاستشراق أخد تعاريف مختلفة على حسب العصر الذي ينتمي إليه ،فهناك من ربطه بالدين و هناك من ربطه بالسياسة كل على حسب حاجته إليه.

كما أن للمستشرقين دور كبير في رسم صورة الآخر و إعطائه إما صورة ايجابية أو صورة سلبية،فالمستشرقون إما موضوعيون أو متعصبون في أرائهم ،تؤثر فيهم المرجعية التي يستندون اليها،ولهم أهداف باطنية مبيتة وراء أبحاثهم و دراساتهم سواء كانت سياسية أو دينية أو اقتصادية .

ولقد ركز البحث في الأساس على إبراز صورة الأدب العربي عند المستشرق ريجيس بلاشير و دلك من خلال كتابة تاريخ الأدب العربي القديم من شعر و نثر ولغة،وأهم ما وصل إليه البحث من خلال آرائه:

- اللغة العربية الفصحى قد جمعت من كل اللهجات السائدة في القبائل و ذلك في العصر الإسلامي و كانت اللغة القريشية هي الأساس.

- الشعر العربي القديم انتقل بالرواية و هو ما أدى إلى ضياع جزء كبير منه.

- ارتبطت عملية جمع الشعر بالحاجة لتفسير القرآن الكريم و فهمه.

- دون الشعر في العصر الأموي وجمع من طرف العلماء و اللغويون والنحويون عن طريق الرواة مم أدى إلى ظهور الانتحال به بسبب بعد الفترة الزمنية والرواية الشفوية والانتحال هو خلق ووضع أبيات أو قصائد شعرية ونسبها للشعراء الجاهليين.

- ارتبط النثر العربي القديم بالخطابة وسجع الكهان والقصص الخرافية والأسطورية لكنه ضاع مع الزمن وماوصل إلينا قليل جدا بسبب الرواية وصعوبة حفظه مقارنة مع الشعر وكان في البداية لابد من معرفة العلاقة والصلات بين الشرق والغرب هذه العلاقة التي مهدت الطريق للمستشرقين ليلجوا عالم الشرق ويرسموا له صورا مختلفة.

قائمة المصادر و المراجع :

أولا المصادر:

- ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ج1، ترجمة : إبراهيم الكيلاني الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 .
- ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي ج2، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 .

ثانيا المراجع:

- إسماعيل (عزالدين): المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع .
- الأسد(ناصر الدين): مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية ، دار المعارف ، ط 3، القاهرة 1998

- الدقاق(عمر): المصادر الشعر الجاهلي ، دار المعارف، مصر 1906 .

- الحاج ساسي سالم نقد الخطاب الاستشراق ج1 : دار المدار الإسلامي، بيروت 2002

- الدعيمي(محمد): الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ط1، بيروت 2006 .

- العقيقي(نجيب): المستشرقون ج1 ، دار المعارف ، ط3 ، مصر 1946 .

- العلوي سعيد بن(سعيد): أوروبا في مرآة المرحلة : صورة الأخير في الرحلة المغربية المعاصرة ، دار السويدي للنشر ، ط1 ، أبو ظبي 2006 .
- درويش(أحمد): تاريخ الاستشراق الفرنسي في الأدب العربي، دار غريب للنشر و التوزيع القاهرة 2004 .

- راغب(نبيل): دليل الناقد الأدبي ، دار غريب ، القاهرة 1998.

- راغب (نبيل): موسوعة النظريات الأدبية : الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1 ،القاهرة 2003
- سعيد إدوارد: الاستشراق ، المعرفة،السلطة،الإنشاء،ترجمة:كمال أبو ذيب ط2،مؤسسة الأبحاث العربية،1984.

-- سمايلوفتش(أحمد): فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة 1998 . عبد المنعم(محمد): الشعر الجاهلي ، دار الكتاب اللبناني ، ط2 ، بيروت 1973 .

- سيد صبرة(عفاف): المستشرقون و مشكلات الحضارة ، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة 1997

- عقيل حسين(عقيل): منطق الحوار ، دار الكتاب الجديد المتحدة ط1 ، بيروت 2004 .

-- غالب (نجم الدين): شخصيات من الشرق و الغرب ، دار اللبنانية ، بيروت 1969 .

- قاسم نجدي(نديم) : أثر الاستشراق في الفكر العربي ، دار الغريب، ط1 ،لبنان 2005 .

أفاية(نورالدين): الغرب المتخيل صورة الخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط ، مركز الثقافي الوطني ، ط1 ، بيروت 2000 .

-ثالثا المعاجم:

- الفيروز أبادي محمد بن يعقوب (مجد الدين):القاموس المحيط،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،2004.

- المعجم الوسيط ج1 ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة 1960 .

رابعا- الدوريات و المجلات :

- محمد البشير مغلي : مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين و علماء الغرب ، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، قسم الدراسات الاستشراقية و الإسلاميات ، جامعة الأمير عبد القادر 1990 .

- محمد الارناوؤط : رحلة في كتاب حضارة العرب تأليف غوستاف لوبون ، مجلة الفيصل العدد 51 جويلية 1981 .

-كبسي(نزيه) : ما الاستشراق ؟ ما سمته؟ ومامساراته ؟مجلة المعرفة ،العدد 227، 1981

- زيادة(نقولا):الغرب يشرق، مجلة الفكر العربي ، عدد 31 ،1983

خامسا- الشبكة المعلوماتية:

-آية العلمي: النص العربي وتأويله عند ريجيس بلاشير، متاح على الشبكة:
www .LA HODOD.BLOGPOST.COM

-حورية الخميشلي : ريجيس بلاشير : العربية لغة المجد والشعر العربي جنة خفية ، المتاح على الشبكة :

www.sahafi.jol sart info php

محمد مدني: التأريخ الاستشراقي الأدب العربي وإشكالية المركز والهامش ، مجلة التسامح، متاح على الشبكة: www.altasamoh.net

فهرس الموضوعات